(Acad)
PT2039
A77H1

DATE ISSUED	DATE DUE	DATE ISSUED	DATE DUE

PRINCETON UNIV
Princeton University Library
32101 054330814

جوتيه

Goethe

إيفيجينيا

و

إجمنت

ترجمهما عن الألمانية

محمود ابن أمين الدسوقي

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٤٦

١١٧٨٠٧

جوتيه

J. Goethe

Goethe

إيفيجينيا

و

إجمنت

ترجمهما عن الألمانية

محمود إبراهيم الدسوقي

الناشر

مكتبة النهضة المصرية

القاهرة

مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر

١٩٤٦

(Arab)
PT 2034
.A7I4
(RECAP)
PT2034
.A7I412

تقديم وعرضه

فى ذات صباح نهض جويته مبكراً من نومه وعكف على عمله . ولم يكن فى ڤايمر آنئذ، بل كان فى رومه ؛ طليقا من عبء الوظيفة والبلاط ، خالصاً لفنه ؛ جامعاً ما ازدحم فى ذهنه لينشره تحت سماء إيطاليا ، فيزهر ويصفو الصفاء الذى اتسمت به شاعريته .

كان ذلك فى يناير ١٧٨٧ ، فلم يكد يفرغ من عمله حتى خرج فى التاسعة صباحا يغشى أبهاء الفاتيكان والكنيسة السكستينية ، ويتأمل المثالة القديمة وجمالها الساجى ، وبدائع رفائيل ومقدرته الساحرة . فلم يلبث أن تحركت مخيلته ، ثم لطفت وصفت ، ونقلت متعة الفن إلى معمل الفن فخلقت ، وأخرجت من هذا الخلق إيفيجنيا فى ثوبها الشعرى .

وكانت إيفيجنيا من قبل منثورة مشهورة ؛ أتمها جويته فى مارس ١٧٧٩ ، ومُثلت على مسرح بلاط ڤايمر فى أبريل ، وقام الشاعر نفسه بدور أوريست ، واشترك معه فى التمثيل الممثلة والمغنية الحسناء كورونا شرويتر فى دور البطلة ، وشقيق دوق ڤايمر فى دور بيلادس .

لم تكن هذه أول مرة مثل فيها جويته شيئا من وضعه ، فولعه بالتمثيل كان معلوما . اشترك معه فيه دوقة ڤايمر الأم والدوق نفسه ، وشقيقه وسادة البلاط وسيداته . وكان جويته مجيداً فى تمثيل الأدوار ، هزليها وجديّها ، يتولى إلى ذلك تحفيظها ، وتوجيه التجارب ، وكتابة الكثير مما يشترك فى تمثيله. وقد شهد هوفيلند Hufeland مؤلف « مكرو بيوتيك(*) تمثيلية « إيفيجنيا » . وإليك ما يقوله ذلك الكاتب المعروف عن أثر شخصية الشاعر فى نفسه :

« لن أنسى أبداً ذلك الأثر الذى خلفه جويته وهو يمثل أوريست فى ثوبه الإغريقى. ليُخيَّل إلىَّ أنى رأيت أبوللون ! فإن أحداً لم يشهد قط هذا الكمال وهذا الجمال فى الجسم والروح مجتمعين فى واحد كما اجتمعا فى جويته» . وكان الشاعر يومئذ فى الثلاثين من عمره « وإيفيجنيا فى طوريس » قد استمدها جويته من إيفيجنيا أوريبيد ، لكن معالجة

(*) Makrobiotik أوفن إطالة العمر ، وبعبارة أخرى علم الصحة . وهى كلة يونانية مؤلفة من Makro ومعناها الطويل و Bios ومعناها الحياة أى العمر الطويل ، وإليها الإضافة المعبرة عن الفن أو العلم .

M 16260

الموضوع تختلف فى الاثنتين اختلافا أساسيا : ونترك للراسخين فى الأدب اليونانى والأدب الألمانى حكمهم على الاثنتين من دون محاباة . ولعلك لا تجد ألمانيا إلا ميز جويته على أوريبيد فى إيفيجنيا . وبحسبنا أن نعرض موجزاً للمسرحيتين ، وندل على مواضع الاختلاف وبواعث شاعرنا الألمانى :

إيفيجنيا ابنة أجا ممنون وكليتمنستره يقدمها أبوها قربانا للآلهة ليتيسر له السفر إلى طروادة مع الجيش الذى يقوده بعد إذ اعتاقته عنه . لكن الإلهة أرتيميس أخت الإله أبوللون تنقذها ، فتلفى إيفيجنيا نفسها فى طوريس كاهنة لها ، تنهض بوظيفتها الدموية ، وتضحى لها بالنزلاء الغرباء جريا على عادتها من قديم ؛ فيسخطها هذا المصير ، وتحنق على منيلاوس وهيلانة اللذين كانا سبب هذا الشقاء . وذووها فى غضون ذلك يحسبونها فى عداد الأموات ، وهى لا تعلم عن ذويها شيئاً . وإنها لكذلك إذا بأخيها أوريست ينزل بطوريس هو وصديقه بيلادس ليسرقا تمثال أرتيميس التى تعبدها طوريس رغم إرادتها . وكان أبوللون أوحى إليه أنه إذا أعاد الأخت إلى دلفى [1] لينجيه من الجنيات اللاتى يطاردنه ليل نهار منذ قتل أمه . لكن الرعاة يكتشفونه فيأسرونه هو وبيلادس ويحضرونه إلى الكاهنة إيفيجنيا فتتعرف على أخيها . وإذ تعلم بالغرض الذى جاء أوريست من أجله إلى طوريس تدبر حيلة لا تنقذ أخاها فحسب ، بل تعينه أيضا على تحقيق غرضه ، فتزعم أن التمثال يجب أن يُطهر وأن يغسل لهذا الغرض بماء البحر ، فيوافق الملك طواس وهو خالى الذهن . غير أن التدبير يحبط ويكشف قبل الأوان ، فيطارد الفارون ويحل بهم غضب الملك . لكن پالاس أثين [2] تظهر للملك وتوحى إليه أن هذا كله قد تم بمشيئة الآلهة فيرضخ طواس لمشيئة الآلهة ، ويدع اليونانيين يرحلون ومعهم غنيمتهم .

هذه قصة إيفيجنيا كما وردت فى أوريبيد فكيف احتفظ جويته بهيكلها وعمقها ، وكساها حلة ألمانية ؟ إنه بينا النزاع عند الشاعر القديم خارجى محض وحله كذلك خارجى

---

(١) مدينة عظمها الأغريق لاحتوائها على معبد أبوللون ، ونزول الوحى الإلهى فيها . وقد كان لكهنة معبد أبوللون نفوذ كبير فى شتى الأمور الدينية والسياسية والأدبية . وكانت حكمتهم موضع تقدير الكبار .

(٢) إلهة عند الأغريق تقابلها ميرفا عند الرومان . وميرفا إحدى الثالوث الإلهى الحامى لرومه المؤلف منها ومن الإلهين جوبتير وجونو . وكان مقرهم الكابيتول يعبدون فى معبد فيه .

كذلك ، إذا بجو يته ينقله إلى صميم النفس فتبدو إيفيجنياه مختلفة عن تلك ، و إذ هى عنده محور الموضوع فهى تتطور فى مسرحيته تطوراً مختلفا . فإيفيجنيا كما تقرأها لجويتـه تخضع لمشيئة إلهتها أرتيميس ، ورعة صادقة ، تتسم بالرأفة والإنسانية وحب الوالدين والأخوة ، وتؤثر الصدق وتحفظ الجميل . وروحها الأنثوية الطاهرة ونفسها البريئة تهذب كلتاهما وتصلح وتكفّر . فهى تلطف من عادات الهمج الخشنة ، وتجلب البركة إلى أرضهم الوعرة ، وتبطل عادة ذبح الغرباء . و يُعجب الملك طواس عملُها النبيل فيميل إليها ، و يغرم بها ، فيطلب يدها فترفض طلبه عن تواضع ، فيعود فيلح ، فتحسر النقاب عن أصلها ، وتفشى له سرها وأنها من بيت طانتالوس اللعين .

لـكن هذا لا يثنيه عن عزمه فيعاود الطلب ، فتتذرع إيفيجنيا بخدمتها للإلهة أرتيميس لأنها لا تحب أن تجرح الملك ، وتزعم أن لإلهتها وحدها الحق فى التصرف فى حياتهـا ، فيتملك الألم والغضب الملك ، و يأمر بأن تعود العادة القديمة ، وأن يضحى من الآن فصاعداً بكل غريب يلقى بطوريس على مذبح أرتيميس . و يوجد من هؤلاء الغرباء إثنان مختبئين فى مغاور الساحل ، فليكونا أول الضحايا من جديد . والغريبان هما أوريست و بيلادس ، يقدمان إلى إيفيجنيا فتستبين فيهما ابنين من أبناء الإغريق ، فتسألهما عن الأوطان فتعلم بسقوط طروادة ، وتسمع بالمصير المشئوم الذى نزل ببيتها ، فيتولاها الذعر ، لـكنها تتمالك جاهدة . و يقص بيلادس عليها قصته الأولى الملفقة ، و ينبئها بفعلة أوريست وتعقب الأرينات(*) إياه ، وكيف أوحى إليه أبوللون بأن يغفر له فعلته إن هو خلص أخته المحتبسـة على غير إرادتها فى أرض السيت إلى آخر القصة .

فى إيفيجنيا هـذه التى كتبها جويته صفا ذهن الشاعر واكتمل صفاؤه ، واقتادت الأخت النبيلة أخاها أوريست من ليل اليأس والخبال إلى نهـار الأمل المشرق ، ووجد الذنب البشرى كفارته فى العظمة الأخلاقية ، وانسجم كل شىء بعد الشك والضلال . « و إيفيجنيا » التى تصل فى ثوبها الشعرى إلى ذروة الشعر الألمانى تمزج الحياة النفسية

(*) آلهة النقمة الموكلات بالآثمين لا يزلن بهم حتى يفقدنهم صوابهم أو يكفروا عن خطاياهم ، فإذا كفروا انقلبت الأرينات — ومعناها باليونانية الحانقات — إلى أومينيدات Eumeniden ومعناها الخيّرات فـكففن عن ملاحقتهم .

العميقة بالسمو الهادئ مزجا رائعا ، ففى نفس البطلة ، وفى نفس أوريست ، وفى نفس طواس ، عراك يحركها من الأعماق ويرتفع بها إلى مرتبه السورة . لكن الشعور الفنى الذى حال فى « جماعة لاؤوكون[1] » دون انفجار الألم انفجارا عنيفا ، والذى يحول غضب « أبوللو بلفيدير »[2] المندلع إلى كبرياء جهمه — هذا الشعور الفنى أو هذا الترفع العف ، يسم لغة المسرحية ويميزها . وقد حافظ جويته فى هذه المسرحية على قواعد الجمال ، والتزم الوقار ، ولكن من دون أن ينال هذا التحفظ من حرارة المسرحية — وهذا سر العبقرية الفنية . وقد قامت إيفيجنيا على البساطة — بساطة القدماء ، وحافظ فيها الشاعر على الوحدات الثلاث : وحدة الزمان ، لأن القصة كلها تقع فى بضع ساعات من يوم واحد ؛ ووحدة المكان ، لأن كل شىء فى التمثيلية يجرى فى حرج المعبد ؛ ووحدة الموضوع لأن الحوادث كلها تتطور فى طبيعة الأشخاص .

على أنا نحب ألاّ نغفل هنا شيئا لا مندى عن تسجيله ، وهو أن هذه المنظومة المجيدة لم يرض عنها الأصدقاء القايمريون ، ولا رضيت عنها محافل الفن فى رومه إذ ذاك . لم يرض عنها من الفنانين والكتاب أمثال تيشباين وموورتس والرسامة أنجيليكا كوفمان وغيرهم . والسبب بسيط : فإن أحدا من هؤلاء المعاصرين لم يكن تغلب فى نفسه على « العاصفة والاندفاع » إلى حد أن يجد علياء الهدوء التى تحلق إيفيجنيا فى سمائها خلوا من البرود .

بقيت كلمة لابد منها وواجب علىّ أن أؤديه لسيدين كريمين كان لهما دخل من قريب أو بعيد فى ترجمتى لإفيجينا . أولهما أستاذى شِفْنْ الذى درست عليه هذه المسرحية أول عهدى بالأدب الألمانى منذ أكثر من ربع قرن . والثانى أستاذى الدكتور طه حسين بك . فقد كان من غريب الإتفاق أن يطلب إلىّ من سنين طويلة ترجمة إيفيجنيا بالذات . فكان له فى هذا فضل الإيحاء ، وفضل التذكير من حيث لا يشعر ، بأستاذى شِفْنْ . وقد

---

(١) تمثال بالفاتيكان يمثل رجلا وولديه قد التفت حولهم جميعاً حيتان هائلتان . فأما الرجل فلاؤوكون كاهن معبد أبوللون فى طروادة . غضب عليه إلهه لأنه دنس معبده بفعلة شنيعة من عمل الحواس ، فأخرج عليه وعلى ولديه حيتين هائلتين من البحر تخنقانهم . وكان الكاهن قبل ذلك قد نهى أهل طروادة عن إدخال الحصان الخشبى المشهور الذى اختبأ فيه الأغريق إلى المدينة ، فلما حل به غضب الإله أولوا هذا بأنه غير راض عن نصيحته ، فأدخلوا الحصان إلى المدينة ، وكان ما كان مما تحويه قصة طروادة .

(٢) تمثال لأبوللون فى الفاتيكان يمثل قوة الشباب والجمال الكامل . وبعده ڤينكلمان أجل ما أخرج الفن القديم .

قرأت على الدكتور طه بك آنئذ ترجمتى لإيفيجنيا وأظنه رضى عن أسلوبها . وأرجو أن أكون عند حسن ظنه أيضا فى الترجمة .

***

ومن محاسن الصدف أن تكون « إجمنت » التى تلى « إيفيجنيا » فى هذا الكتاب هى العمل التالى لإيفيجنيا فى رحلة جويته الإيطالية . ففى نفس السنة (١٧٨٧) أتم الشاعر فصول إجمنت التى بدأها فى فرانكفورت قبل اثنتى عشرة سنة ، وكان على وشك الانتهاء منها قبيل سفره إلى إيطاليا . وكذلك إجمنت تناولها التعديل وإن ظلت فى صيغتها النثرية . وكذلك خالف فيها جويته الأصل المعروف ، وغيّر فى شخصية البطل ما شاءت له بواعثه الفنية .

فأجمنت بطل من طبقة الفرسان ومن أصل هولندى عريق فى النبل ، زاد عن حرية بلاده ، وسار فى حياته سيرة مرحة ، صريحة ، مستقيمة ، وكان دمث الأخلاق مع من هم أقل منه ، فأحبه الجند وبجّله الشعب . وكانت الظروف فى أيامه عصيبة . فالدوق ألبا مبعوث الملك فيليب الثانى ، ورسوله الرهيب ، يصل إلى الأراضى الواطئة ، ويهدد حريتها ، وإجمنت خالى البال ، يلوذ من مهامه الجدية بقرب كلارا ، ينسى عندها هموم الحياه . وكلارا فتاة من بنات الشعب نضرة ، ساذجة ، مرحة ، تحب إجمنت وتتفانى فى حبه . ولأجمنت صديق من النبلاء والزعماء حكيم حَذِر هو أورانيان ، لا يرضى عن غفلة صديقه فيحذره ، ويرى فيه النائم اليقظان السائر فى نومه على حافة السطح فينبهه ، فلا يتنبه بل يبقى حيث هو ، ويقع فريسة لخصمه الدوق ألبا ، بينا ينجو أصدقاؤه بجلودهم لائذين بالفرار .

وإجمنت زعيم لا يعرف الموار به ، ولا يحجم عن قول الحق فى وجه ذى السلطان ، فهو يصارح ألبا الخبيث برأيه ، ويدافع عن حقوق الأقاليم الواطئة . وألبا إنما جاء لهضم هذه الحقوق ، فهو يستدرجه إلى الأدلاء بأقوال تشكك فى ولائه للملك ، فيتذرع بها للقبض عليه ، والزج به فى السجن . ولا يفقد إجمنت فى سجنه ثقته بعدالة الملك وصداقة الوصية ونجدة أورانيان والشعب . وتحاول كلارا التى يرفعها الألم واليأس إلى مرتبة البطلة — تحاول إثارة الشعب ، وحمله على تخليص إجمنت بالقوة ، ولكن عبثا تحاول ، فتتناول السم ، وتسبق الحبيب إلى الدار الباقية . وفى ليلة إعدامه تتبدى له فى الحلم حائمة فوق سحابة على صورة إلهة الحرية ، وتعلن إليه أن موته سيحقق للهولنديين الاستقلال ، ثم تناوله إكليل النصر .

هذه قصة إجمنت كما كتبها جويته . وقد أخذ شيلر على صديقه الشاعر الأكبر بعض المآخذ فيها من الناحية التاريخية . فأجمنت الذى يعرفه التاريخ قد كان متزوجا . وهو حين بقى فى بروكسل ولم يرحل عنها ، إنما كان يلبى داعى حبه لأمرأته وأولاده . لكن جويته لم يرد التزام الدقة التاريخية ، فتعمد أن يقدمه — وهو الرجل ذو الزوجة والأولاد — أعزب، غير عابئ بالتاريخ . وجويته يعلل ذلك ويبرره بقوله : « لقد كان علىّ تحقيقا لغرضى أن أجعل منه شخصية ذات صفات تلائم الشاب أكثر مما تلائم الرجل المتقدم فى السن ، وتناسب الأعزب أكثر مما تناسب رب البيت ، والمستقل أكثر ممن تقيده ظروفه » . لكن شيلر الذى يمجد الفن فى التزام الأمانة عند عرض الألوان المحلية من الناحية التاريخية ، كان يود أن يرى إجمنت آخر غير الذى قدمه جويته — إجمنت الكفء للمهمة التاريخية العظيمة الملقاة على عاتقه ، لا إجمنت الودود الذى يمكن أن نرثى لحاله ونعطف عليه . إجمنت الذى يفرض علينا إكباره والإعجاب به .

وهذا مأخذ ينهض إلى اليوم . لكن المسرحية برغمه ما يزال لها إلى وقتنا هذا فتنة لم تهرم ، أبقاها ذلك الحب الذى ربط به الشاعر بين الزعيم وبين كلارا بنت الشعب ، وتلك الصورة البارعة التى صور بها الفتاة ، وذلك الرسم الدقيق البالغ الدقة ، الذى رسم به مناظر الشعب والأشخاص العارضة . على أنه لا سبيل إلى إنكار أن مشاهد المسرحية تتراص بعضها إلى بعض بدلا من أن يتولد بعضها من بعض ، وأن أسباب نكبة إجمنت لم تستقص الاستقصاء الكافى .

ومع هذا فما تزال المسرحية إلى اليوم أثيرة عند الجمهور الألمانى ، وستظل كذلك . ولعلنا نحسن صنعا إذا نحن ختمنا هذه الكلمة برأى للفنان الألمانى العظيم لودفيج فان بيتهوفن فى إجمنت . فقد كان كتب لها إفتتاحية موسيقية ونشيداً تختم به ، وبعث إلى جويته طى كتاب يسأله رأيه فى موسيقاه ، ويبدى إعجابه بالشاعر . قال :

« ستتلقون قريباً فى ليبزيج موسيقى إجمنت . إجمنت الرائع الذى تلوته بحرارة ، ومن نحوك فكرت فيه ، وشعرت به ، وترجمته إلى الموسيقى بمثل هذه الحرارة » .

١٢ ديسمبر ١٩٤٥ محمود ابراهيم الدسوقى

ايفيجينيا

أشخاص المسرحية

إيفيجنيا

طواس : ملك الطَوْرِيين

أوريست

بيلادس

أركاس

مسرح الحوادث

حرج أمام معبـــد ديانا

الفصل الأول

المنظر الأول

إيفيجنيا (وحدها) أيتها الأعالى المتحركة ، فى هذه الغابة المقدسة ، المعروشة ، المتقادمة العهد
ما يزال الرعب يتملكنى فى ظلالك كلما خرجت إليها ،
مثلما تتملكنى الرهبة فى قدس الإلهة الرهيب ،
فكأنى هنا لأول مرة ، لا تأنس روحى إلى هذا الجوار .

إن إرادة سامية تحتجزنى فى هذا المكان غير عام ، وأنا مستسلمة لها ،
وما زلتُ ، كما كنت فى عامى الأول ، غريبة فى هذه الديار ؛
ذلك أنى واحسرتاه ، يفرق البحر بينى و بين أحبائى ،
وأنى أقف بالساحل أياما طوالا ، تهفو روحى إلى أرض اليونان ،
أرسل على الموج حر الزفرات ، فلا يجيب الموج بغير الزمجرة وأجش الأصوات .

لهف نفس على الوحيد ، يعيش قصيّا عن والديه و إخوته ؛
يخطف الهم هناءه ، ولما تكد تتناوله شفتاه ؛
وتهيم أفكاره دواما إلى أبهاء أبيه ،
حيث الشمس قد جلت السماء ، أول العهد ، لعينيه ؛
وتوثقت بينه و بين اللدات اللاعبات أواصر الحنان .
حاشا أن أعترض على مشيئة إلهتى . حاشاى !

إنما تحزننى حال المرأة ، وأرى الرجل سيدا فى البيت وفى الميدان ،
وهو فى الغربة لا تعييه الحيلة ، ولا يعدم العون .
الملك يسره ، والنصر يكلله ، فإذا جاء أجله مات موت الكرام

والمرأة يا سوء حظها ! الطاعة للزوج الفظ واجب وعزاء .
ويا تعس نصيبها ، إن طوّح بها القدر الساخط إلى قاصى الأرجاء .
كذا يحتبسنى طواس الرجل النبيل ،
ويحكم حولى قيود الرق المقدسة القاسية .

إلهتى ! لشد ما يخجلنى أن أعترف بأنى أخدمك فى تبرم الصامتة ،
وأنت بعد منقذتى ؛
وكان أولى أن أقف عليك حياتى باختيارى .
لقد أملت دواما فيك ، وما زلتِ يا ديانا [1] معقد رجائى ؛
أنت التى احتضنتنى فى ذراعك المقدس الحنون ،
فاحتضنتِ الإبنة المنبوذة لسيد الملوك أجمعين .

أجل يا ابنة زيوس [2] ، إذا كنتِ قد رافقت الرجل الرفيع المقام ،
أجا ممنون صنو الآلهة ، الذى روّعته حين طلبت ابنته ،
والذى قدم على مذبحك أحب الناس إليه —
إذا كنتِ رافقته ، ورددته إلى وطنه مكللا بالمجد ،
من فتح طروادة المدكوكة الأسوار ،
وحفظت له زوجه و إلكتره وابنه ، وكنوزه الثمينة ،
فما يمنع أن ترديني أنا أيضا إلى ذوىّ ،
وأن تنجيني — أنت التى أنقذتنى من الموت —
من الحياة هنا أيضا ، من ذلك الموت الثانى .

---

(١) ابنة زيوس وتوأم أبوللون وهى إلهة الصيد والقمر وإلهة العفاف ، ومعينة الوالدات . وهذا اسمها عند الرومان ، أما عند اليونانيين القدماء ، فتسمى أرتميس Artemis ، وتعد ديانا فى الأساطير رمز العذرية الطاهرة والتربية الصارمة ، وقد عاقبت الصياد أكتيون فمسخته وعلا لأنه تجسس عليها وهى فى الحمام مع حورها المصاحبات لها ، ثم أطلقت عليه كلابه فنهشته نهشا .

(٢) رب الأرباب عند اليونان ، ويقابله جوبيتر عند الرومان ، وهو فى أساطير اليونان ابن كرونوس Kronos وريا Rhea اغتصب ملك أبيه ، ودحر التيتان مناصريه ، وترك لأخيه روزيدون Roseidon البحر ولأخيه هادس Hades الجحيم ، واحتفظ لنفسه بملك السماء والسيادة على الدنيا ؛ أما الأرض فكانت بينهم شركة .

المنظر الثانى

إيفيچنيا . أركاس

أركاس أوفدنى الملك إلى كاهنة ديانا ، أحمل إليها تحيته وأقرئها السلام ،
فاليوم تحمد طَوْريس لإلهتها ماحبتها إياه من نصر مؤزر جديد .
وقد سبقتُ الملك والجيش إلى هنا ، لأعلن قدوم الملك واقتراب الجيش .

إيفيچنيا إنّا مستعدون لاستقبالهما بما يستحقان من تكريم .
و إلهتنا ترمق بعين الرضا ما يقدم طُواس من قرابين .

أركاس ليتنى أجد نظرتك أيضا أكثر حفاوة و بشرا ،
وقالا حسنا لنا أجمعين ، يا أيتها الكاهنة المبجلة ، والعذراء المقدسة .
فما يزال الهم ينتابك خفيا ، وما نزال كما كنا فى سالف السنين ،
نطمع عبثا فى أن نطلع على شىء من مكنون صدرك الدفين .
فهذه نظرتك التى أرتاع لها على الدوام منذ عرفتك فى هذا المكان ،
وهذه نفسك المستغلقة البعيدة القرار .

إيفيچنيا كما هو بالقَصِيّة الميتمة خليق .

أركاس أو تعدين نفسك هنا قصية ميتمة ؟

إيفيچنيا أممكن أن تكون الغربة وطنا لنا ؟

أركاس لقد بات وطنك غريبا عنك .

إيفيچنيا ومن ثم لا يبرأ قلبى الدامى !

فى صباى الأول ، والنفس ترتبط بأب وأم وأخوة أو تكاد ،
والأغصان الحديثة تتجه فى النمو صوب السماء ،
وتنجم من الجذوع العتيقة متزاملة حبيبة ،
فى هذا الصبا حلت بى لعنة غريبة فرقت بينى و بين الأحباء ،
وفصمت رابطتنا الجميلة بقبضتها القاسية !!!

فعفّت خير مسرات الصبا ، وغاضت رفاهية السنين الأُول .
وقد نجوت فلم تلح لى نفسى إلا طيفا ،
ولم يعاودنى حب الحياة .

أركاس إذا كان هذا رأيك فى مقدار تعاستك ، فرأيى أنك جاحدة لا مراء .

إيفيچنيا لم أحبس عنكم شكرى قط .

أركاس أجل ، لـكنه ليس بالشكر الخالص ، الذى يحبب صنع الخير ،
ولا بالنظرة الراضية ، التى تطالع رب البيت بالقناعة والميل .

عندما جاء بك إلى هذا المعبد مصير غوير خفى من سنين طوال ،
خف طواس للقائك ، أنت الموهوبة لله ، بالتجلة والأقبال ؛
وكان هذا الساحل يرمى بالرعب كل غريب ،
فبذل لك من مودته وحفاوته ما يبذل للقريب .

إن أحدا قبلك لم يطأ هذه البلاد إلَّا سقط على درج ديانا المقدس ضحية دامية ،
بحكم العادة من قديم .

إيفيچنيا التنفس وحده ليس كل ما تهب الحياة ؛
وأى حياة تلك التى لا أفعل فى هذا المـكان المقدس غير أن أبديها ،
كالطيف الطائف بقبره .
أحياة مرحة محسوسة تلك التى تطوى الأحلامُ أيامَها سدى ،
ويُعدُّنا كل يوم فيها لأيام غبراء ، تقضيها على ساحل ليثه(*) ،
جمهرة الغافلين من الأموات .
إن حياة لا نفع فيها هى الموت قبل الأوان ،
وهذا المصير النسوى هو مصيرى قبل كل إنسان .

أركاس هذه الـكبرياء النبيلة التى تبدين باستصغارك شأنك ، أغتفرها لك ؛

(*) نهر فى الجحيم تروى الأساطير اليونانية والرومانية أن أشـباح الموتى تشرب منه فتنسى هموم الحياة وآلامها .

وإن كنتُ لك من جرائها شديد الرثاء ،
ذلك أنها تسلبك متعة الحياة .
أحق أنك لم تصنعى منذ مقدمك هنا شيئا ؟
فمن سلّى إذن عن الملك الكآبة ؟
ومن عمد إلى تلك العادة العتيقة القاسية —
وكانت تقتضى الغريب حياته قربانا على مذبح ديانا —
فعطلها بالإقناع الرفيق عاما بعد عام ؟
من كثر أن رد الأسرى عن موت محقق ، إلى أوطانها سالمين ؟
أو لم تستجب ديانا لصلاتك العذبة ، بدل أن تغضب لما فوّتِ عليها ،
من قربان دموى جرت به عادتها من قديم ؟
أليس النصر يحوّم طروبا حول الجيش ؟ أما يتقدمه ؟
أليس الجميع يحسون مصيرا خيرا من ذى قبل ،
مذ بات الملك المدبر لأمورنا بالحكمة والشجاعة من أمد طويل ،
يستمد الرحمة من جوارك ،
ويخفف عنا واجب الطاعة التى نبذلها له صامتين ؟
أترين مما لا نفع فيه أن يقطر البلسم منك على آلاف من تحتك ،
وأن تصبحى للشعب الذى جاءه بك إلهٌ ، معينا لا ينضب لهناء جديد ؟
وأن تهبى الغريب على ساحل الفناء المجدب سلاما ورجعة إلى الأوطان ؟

إيفيجنيا — لا تأخذ العين القليلَ اليسير ، وهى تتطلع إلى الباقى الكثير .

أركاس — أتطرين الذى لا يقدِر ما يفعل ؟

إيفيجنيا — بل أذم الذى يستكثر ما يعمل .

أركاس — كذلك الذى يستهين ترفعا بقيمة حقه ،
والذى يُعلى عن غرور من قدر باطل .
صدقينى واستمعى إلى كلمة رجل وفىّ شريف :
إذا تحدث الملك إليك اليوم فيسترى له مفاتحتك بما يفكر فيه .

إيفيجنيا كلامك الطيب يثير مخاوفى ، فقد طالما رُعت من طلبه جاهدة .

أركاس فكرى فيما تصنعين وفيما ينفعك .
إن الملك مذ فقد ولده لا يثق إلا بالقليلين من ذويه ؛
وثقته بهؤلاء القليلين لم تعد كما كانت من قبل .
إنه ينظر بعين السخط إلى ولد كل نبيل ،
يخشى أن يصبح خليفته على ملكه .
إنه يخاف سنا يكون فيها وحيدا بلا معين ،
بل لعله يخشى فتنة جريئة وموتا قبل الحين .
ليس من طبع السيت(*) أن يمهدوا للكلام ،
والملك أزهدهم جميعا فى مثل هذا التقديم .
اعتاد أن يأمر وأن يفعل ،
فلا يعرف فن تصريف الحديث من بعيد إلى غرض ينتويه ،
والاحتيال لذلك ، بالكياسة والرفق .
فلا تصعبى الأمور بتحفظ هو الرفض ، و بتأبى الفهمَ .
بل ترفق به ، وقابليه فى منتصف الطريق .

إيفيجنيا أأتعجل ما يتوعدنى ؟

أركاس أتعدّين تقربه تهديدا ؟

إيفيجنيا إنه أشد ما يرعبنى .

أركاس أجزه ثقة عن ميله فهى حسبك

إيفيجنيا أجزيه أن روّح عنى خوفى .

أركاس فيم تكتمين عنه أصلك ؟

(*) شعوب مختلفة الأصل والعادات ، اختلف المؤرخون القدامى فى تعيين موطنها فقال هيرودوت إنها كانت تسكن ما هو الآن جنوب الروسيا ، وزعم بطليموس أن موطنها كان فى آسيا عن يمين جبال ايماوس وعن شمالها ، ومهما يكن من أمر فقد كانت هذه الشعوب من الرحل ، وكانت قبائلها المختارة تركب الخيل ، وتتسلح بالقوس والسهام . خضعت لها قبائل من الرحل وأخرى من الفلاحين ، وكان بعض هؤلاء من المغول والبعض الآخر آريين ، والسيت أنفسهم فيما يظهر من أصل هندى جرمانى .

إيفيچنيا الكتمان من شيمة كاهنة مثلي .

أركاس الملك لا يكتم عنه شيء . إنه ليحس ما تخفين و إن لم يطالبك بإبدائه ،
وهو يشعر من أعماق نفسه العظيمة بأنك جاهدة فى التصوّن منه .

إيفيچنيا أغير راض هو عنى ؟

أركاس يكاد هذا أن يكون : وهو أيضا لا يذكرك .
لكن كلاماً منه دلنى على أن رغبته ملحة فى امتلاكك .
فلا تهمليه ، ولا تدعيه وشأنه فتحفظيه ، فيوقع بك .

إيفيچنيا كيف ! أيضمر الملك مالا يجمل بنبيل يغار على اسمه ،
و يلطف تبجيلُ الآلهة من نزوات صدره ؟
أيعتزم أن ينتزعنى من الهيكل إلى فراشه ؟
إذن فلأدعون الآلهة جميعا وفى المقدمة ديانا ،
الإلهةُ ذات العزم ، التى تحمى كاهنتها بلا مراء ،
والعذراء التى تدفع من قلبها عن العذراء .

أركاس هدئى روعك ! فسورة الدم تدفع غير الملك إلى فعل كهذا من عمل الصبيان .
إنما أخشى منه قراراً آخر قاسيا لا يصرفه عنه شيء : فنفسه ثابتة ، وعزمه لا يلين .
فهلا وثقتِ به ، وحفظتِ جميله ، إن كنت لغير ذلك من الكارهين .

إيفيچنيا ليتك تحدثنى بما تعلمه عن الملك غير الذى ذكرت .

أركاس اسمعيه منه .
إنى أرى الملك آتيا وأراك تبجلينه ،
وقلبك يدعوك إلى ملاقاته بالحفاوة والتكريم .
والرجل النبيل تحمله المرأة بالقول الطيب إلى مدى بعيد .

إيفيچنيا (وحدها) لا أرى وايم الحق كيف السبيل إلى الانتصاح بهذا الوفىّ .
بلى إنى لأحب أن أصغى إلى صوت الواجب ،
فأجزى الملك عن إحسانه بإحسان ،
فعسى أن أصدق القولَ فيما يعجب ذا السلطان .

المنظر الثالث

إيفيجنيا . طواس

إيفيجنيا لتباركك الإلهة بالملك والسلطان ، ولتهبك النصر والمجد والمال ،
وتمنح ذويك الخير والبركة ، وتحقق لك كل رغبة صالحة .
لتنعم أنت المهيمن بالعناية على الكثيرين ، بالهناء العزيز قبل الكثيرين

طواس ما كان أحراني أن ترضى نفسى بتمجيد شعبى .
لكن ما أحرزته ينعم به غيرى أكثر منى ،
وإنه لسعيد من يلقى الخير فى بيته ، ملكا كان أو صعلوكا .
وقد شاطرتنى المبرّح من آلامى ،
حين اختطف السيف من جنبى آخر أبنائى وخيرهم جميعا .
لم أكد أستشعر وحشة فى منزلى حين كانت شهوة الانتقام مستولية على حسى .
والآن إذ ترضى نفسى ، وقد دال ملك أعدائى وثأرت لولدى ،
لا ألقى فى بيتى ما يثلج صدرى .
فالطاعة الهاتفة التى كانت تطالعنى من كل عين ،
باتت كظيمة للهم رهينة الكمد .
كل امرئ يفكر فيما عسى أن يأتى به الغد ،
ويتبعنى لأن عليه أن يتبع محروم الولد .
اليوم آتى إلى هذا المعبد — الذى كثر أن غشيته ،
استوهب النصر — وأشكر عليه —
وفى صدرى أمنية طال عليها العهد ، لا تجهلينها ولا تتوقعينها .
إنى أرجو لخير شعبى وخيرى أن أدخلك بيتى عروسا لى .

إيفيجينا إنك تعرض على المجهولة الأصل أكثر مما ينبغى أيها الملك .
إن الماثلة أمامك هاربة مخزية لا تطلب على هذا الساحل
سوى الكنف والراحة ، وقد نالتهما منك .

طواس ليس عدلا ولا حسناً أن تشكى دوما حيالى ،

ما تسلكين حيال آخر رجل فى بلادى ، فتخفى عنى سر مقدمك .
إن هذا الساحل يرعب الغرباء : بذا يقضى القانون وتلزم الضرورة .
لكنه منك وحدك ، يا من أكرمنا ضيافتك ،
وبت تستمتعين بكل حق ربانى ، فتقضين يومك وفق هواك ، وطوع مشيئتك —
منك وحدك رجوت الثقة التى يرجوها رب البيت لقاء وفائه .

إيفيچنيا إن كنت كتمت نسبى وحقيقة أمرى ، فالحيرة ما دفعنى ، أيها الملك ،
لا انتفاء الثقة .
فما يدريك ألاّ يستولى عليك الرعب وتتملك القشعريرة فؤادك الكبير ،
لو أثبتّ التى تقف بين يديك ،
فعلمت أى رأس لعين تعول وتحمى .
عندئذ تعجل بإقصائى عن حظيرة ملكك ،
بدل أن تدنينى إلى جانب عرشك ؛
وقد تدفع بى إلى الشقاء ، الذى ينتظر كل هائمة
يشردها الرعب الغريب القاسى ،
قبل أن تفكر فى عودتى السارة إلى أهلى ، وفى إنهاء غربتى .

طواس مهما يكن رأى الآلهة فيك ، ونياتهم حيالك وحيال بيتك ،
فإن البركة التى تحل بى من السماء لم تقلع ، مذ حللت بيننا ،
وتمتعت بحق الضيف الإلهى .
وليس يسيراً أن تقنعينى بأنى أظلل رأساً مثقلا بالذنوب .

إيفيچنيا إنما يجلب لك البَرَكةَ إحسانُك لا الضيف .

طواس ما يصنعه المرء للخاطئين لا يجلب بركة ؛ فعنك هذا التكتم وهذا الأعراض .
ما أنا بالرجل الظالم ؛ فقد أودعتك الإلهة يدىّ ،
وكما أنك مقدسة عندها ، فكذلك أنت مقدسة عندى .
وستظل إشارتك قانوناً لى .
فإذا وسعتك العودة إلى وطنك أبرأتك من كل طلب لى .

غير أن السبيل موصدة إلى الأبد من دونك ؛
و إذا كان قومك قد شردتهم الأيام ، أو شتتهم النكر من نكبات الزمان ،
فأنت لى بحكم ما هو أكثر من قانون .
فأفصحى ، فإنك تعلمين أنى إذا وعدت أنجزت .

إيفيچنيا يأبى اللسان فكا كا من عقدة طال عليها الزمن
وأن يبوح أخيراً بالسر الدفين من قديم .
والسر أن ذاع مرة زايل القلب إلى غير رجعة ،
وغادر إلى الأبد حرزه الأمين ،
ثم راح يضر أو ينفع حسبما تشاء الآلهة .
فاعلم إذن أنى من ذرية طانتالوس[1] .

طواس نطقت هادئة بالكلمة الكبرى .
أفجدك من عرف الناس صفيّا للآلهة فى سالف الزمان ؟
أهو طانتالوس الذى اتخذه چوبيتر مشيراً ، وأدناه من مجلسه والخوان ؟
والذى كانت الآلهة ذاتها تبتهج بحديثه العامر بالخبرة الزاخر بالحكمة ،
المعجز كالآيات ؟

إيفيچنيا هو بعينه .
لكن الآلهة أحرياء ألاّ تختلط بالبشر اختلاطها بالأنداد .
فالجنس الفانى أضعف من أن لا يصيبه الدوار فيما لم يألف من علياء .
لم يكن جدى لئيما ولا خؤونا ، إنما جل عن أن يكون من العبيد .
ولم يكن لرفقة المرعد الأعظم[2] إلا بشراً ،

---

(١) تذكر الأسطورة اليونانية أنه ابن زيوس رب الأرباب عند اليونان من زوجه بلوتون ، وكان ملكا على فريجيا وأبا لبيلوپس ، اصطفته الآلهة ، وأشركته فى ولائمها فبطر وطغى ، ونسب إليه أنه كان يفشى احاديث الآلهة ، وأنه امتحن علمها بكل شىء بأن ذبح ابنه بيلوپس وقدمه لهم طعاماً ، فعاقبته الآلهة بأن نفته إلى الجحيم ، وسلطت عليه فيه الجوع والعطش يعذبانه إلى الأبد .

(٢) يقصد جوبيتر .

فكانت خطيئته من خطايا الفانين .

كان قضاؤهم صارماً ، فقال الشعراء : إن القحة والغدر

أسقطاه عن مائدة چوبتير إلى حضيض طارطاروس[١] العتيق ،

وباءت ذريته كلها بغضب الآلهة .

طواس أحملتْ وزر الجد أم وزرها هي ؟

إيفيچنيا كان عُرض الصدر وقوة نخاع التيتان[٢]

هما تراث أبنائه وحفدته الأكيد .

لكن الرب طوّق جباههم بأطواق من نحاس ، فأعمى أبصارهم المظلمة الفزعة

عن النصح والقصد والحكمة والأناة .

فكل شهوة لهم باتت سورة ،

وكل سورة لهم جامحة لا تعرف الحدود .

فبيلوبس أحب أبناء طانتالوس إليه ، الراكب فى نزواته رأسه ،

استحوذ بالغدر والاغتيال على هيپوداميا —

ابنة أونوماوس — أجمل النساء :

فرزقته هيبوداميا ، مرضية بعلها ،

بولدين هما تيیستْ وأتْريوس .

وكان أبوهما يؤثر بالحب وليده البكر من زيجة أخرى ،

فنشأ الأخوان يحسدان الأخ على هذا الحب النامى .

وألف الكره بين قلبيهما فأقدما فى الخفاء على أولى الشنائع ،

وقتلا الأخ غيلة وغدرا .

---

(١) هوة سحيقة كان زيوس رب الأرباب يلقى فيها التيتان المردة أبناء الطبيعة الخشنة التى هو من نسلها .

(٢) التيتان فى أساطير اليونان هم أبناء أورانوس Uranos وجيا Gaea اللذين يمثلان الطبيعة الخشنة فى صورتها الأصلية ، وقد كان من هؤلاء الأبناء ابن يدعى كرونوس اغتصب سلطان أبيه فجاء ابنه زيوس رب الأرباب عند اليونان يغتصب سلطانه ، ويلقى بالتيتان من عمومته إلى هوة طرطاروس ، ويصطفى من والاه منهم وانضموا إليه .

ووهم الأب أن زوجه القاتلة ،
فطالب هيبوداميا بأن ترد الولد ، وأحفظه الجرم فشدد النكير ،
فانتحرت —

طواس امض فى قصتك ، لا تمسكى !
أتراكِ أسفتِ على ثقتك بى ؟ تكلمى !

إيفيجنيا طوبى لمن يستعذب ذكر الآباء
فيشيد وينوه بجلائل أعمالهم
ويسره أنه فى سلالتهم الجميلة عقبهم .

لا يُرزق البيتُ شبيه الإله ووحش الأنسان متعاقبين ،
إنما يرزق سلالة أشرار ترعب الناس ،
أو سلالة أخيار تقر العيون .
وقد خلف أتريوس وتييست أباهما على حكم المدينة ،
ثم آذن وئامهما بالزوال فلم يلبث طويلا .
فدنس تييست فراش أخيه ، وانتهك حرمته ؛
وانتقم منه أتريوس بطرده من حظيرة دولته .
وكان تييست قد مكر بأخيه مبيتا الشر ،
فاختطف من قبل ابنا له ، مدخلا فى روعه أنه إبنه .
ورباه خفية على هذا الحساب ، وأظهر نحوه المودة ،
وعمد إلى الفتى فأوغر صدره ، وأزكى فيه شهوة الانتقام ،
وابتعثه إلى المدينة ليقتل أباه فى شخص من يتوهم أنه عمه .
وإذ يفتضح عزم الفتى ، يقسو الملك فى عقاب القاتل ، واهما أنه يقتل ابن أخيه .
ويعلم بعد الأوان أمر الذى قضى أمام ناظره المنتشى ،
فيفكر هادئا فى فعلة فظيعة ليبرد النار التى تأكل صدره ؛
ويصطنع رباطة الجأش ، ولا يبدى مبالاة .

ويذهب يسالم الأخ ويستدرجه ، ويستقدمه ومعه أبناه .
ويخطف الصغيرين ويذبحهما ، ويقدمهما إلى الأب أول ما يقدم
طعاما معُوفا مفزعا .
ويشبع تيست من لحمه ، ويتولاه شيء من الانقباض
ويخطر الصغيران إذ ذاك بباله ، ويخيل إليه أنهما يجريان ،
وأنه يسمع صوتهما على باب القاعة .
عندئذ يقذفه أتريوس برأسى غلاميه ،
ويرميه بأرجلهما متشفيا فيه —
إنك تشيح بوجهك أيها الملك مقشعراً .
كذا أشاحت الشمس بوجهها ،
وحولت مركبتها عن طريقها الأبدى .
أولئك أجداد كاهنتك أيها الملك .
إن كثيرا من شؤم طالع الناس ،
وكثيرا مما يقترف الذهن المخبول ،
يُرخى عليه الليل سدوله الصفيقة ،
فلا تأخذ أعيننا منه سوى غبش مخيف .

طواس أسدلى على هذا أيضا ستار الصمت ، فحسبى رعبا .
ترى أية أعجوبة نسلتك من هذا البيت المتوحش !

إيفيجنيا كان أبى أجاممنون أكبر أولاد أتريوس ،
غير أنى ، والحق أقول ، أراه منذ وعيت مثال الرجل الكامل .
وقد رزقته كليتمنستره بى أول ثمرة للحب ، ثم رزقته إلكتره .
وساد الهدوء حكم الملك فأصاب طانتال الراحة التى جفته من قديم .
ولم ينقص هناء الوالدين إلا الغلام .
وإن هذه الرغبة لتجاب ، وينمو أوريس الحبيب بين الأختين
إذ بهذا البيت الآمن يهيأ له شر جديد .

لقد بلغتكم صيحة الحرب التى ألبت قوى أمراء اليونان
من حول أسوار طروادة ، طلبا للثأر من خطف أجمل النساء .
ولا أعلم أسقطت المدينة فى أيديهم وأخذوا بثأرهم ،
فقد كان أبى يقود جند اليونان .
وقد لبثوا فى أوليس(*) يترقبون الريح المؤاتية .
لكنهم عبثا كانوا يترقبون .
كانت ديانا حانقة على قائدهم فاعتاقت المجلين ،
وطالبت على لسان كالكاس الكاهن بكبرى بنات الملك :
فاستدرجونى وأمى إلى المعسكر ، وانتزعونى منها إلى الهيكل ،
ووهبوا للإلهة هذا الرأس — فرضيت ديانا .
ولم تك تطلب دمى ، فدرجتنى فى سحابة وأنجتنى .
وفى هذا المعبد أدركت أنى نجوت من الموت أول ما أفقت .
فأنا إيفيجنيا بعينها ، حفيدة أتريوس وابنة أجاممنون ،
من تملكها الإلهة ومن تكلمك .

طواس ابنة الملك عندى والمجهولة الاسم سواء فى الإيثار والثقة ،
فلن تفوز منهما تلك بأكثر من هذه .
فإليك ما طلبت بادئ الأمر أعيده على مسمعك .
تعالى اتبعينى ، وقاسمينى ما أملك .

إيفيجنيا كيف يجوز لى أن أقدم على هذا الأمر ، أيها الملك !
أليس لإلهتى التى أنقذتنى الحق دون سواها فى حياتى المكرسة لها ؟
لقد اختارت لى ملجأى وحمتنى ،
وهى هنا تدخرنى لأب اصطنعت عقابه بما فيه الكفاية ،

(*) مكان يقع فى تاريخ الأقدمين فى الأرض اليونانية المسماة بيئوتيا . وله مرفأ مشهور تذكر الأساطير أن اليونانيين الزاحفين على طروادة احتشدوا فيه ، وقدم فيه قائدهم أجاممنون ابنته قرباناً للآلهة أرتيميس أو ديانا استرضاءاً لها ، واسم أوليس الآن قرة بابا .

ولعلها تعدُّ له بذلك أهنأ مسرات الحياة .
ولعل الرجعة السارة قريبة منى . ومن يدرى ،
لعلى لم أفطن لطريقها فقيدت نفسى هنا على غير مشيئتها .
لقد رجوتها أمارة إن كان قد قدر لى هنا البقاء .

طواس أمارتك أنك ما تزالين هنا مقيمة ،
فلا تطلبى مهرباً كالذى تنشدين جد متهيبة .
عبثا تبدئين وتعيدين متى كان الرفض ما تبغين .
فلن يسمع الآخر من كل هذا إلا « لا »

إيفيجنيا ليس البيان هو الذى يهر وحده ،
فقد كشفت لك عن صميم القلب .
ونفسك ألا تحدثك عن لهفتى وحنينى إلى أبى وأمى وأخوتى ،
وأن الخوف يتملك فى ذاك شعورى ؛
وأنه فى تلك الأبهاء التليدة التى يهمس الحداد أحيانا فيها باسمى ،
قد يضفر الفرح بين أعمدتها الأكاليل ابتهاجا بى ،
كما يبتهج بمولود جديد ؟
فهلاّ رددتنى فى الفلك إلى أهلى تهبنى وتجدد للجميع الحياة .

طواس عودى إذن من حيث أتيت ، واستجيبى لداعى الفؤاد .
ودعى العقل لا تصغى إلى نهيه ، ولا تستمعى لما يوحى الرشاد .
كونى امرأة لا غير ، واستسلمى للباعث الذى يتملكك ،
ويدفعك تارة هنا وتارة هناك ، لا يصدك كابح ولا زمام .
فالهوى إذا شب فى قلوب النساء ،
لم تصرفهن عن الخؤون رابطة مقدسة ،
فهو يغويهن من أحضان أب أو بعل ،
دائم الود صادق الوفاء .

إيفيجينيا أذكر أيها الملك كلمتك النبيلة ؛ أفهذا ردك على ثقتى بك ؟
لقد خلتك مستعدا لسماع كل شىء .

طواس لم أك مستعدا لما لم أرجُه ،
ولو أنه كان ينبغى أن أتوقعه .
أو لم أك أعلم أنى مقدم على مساومة امرأة !

إيفيجينيا لا تذم أيها الملك جنسنا المسكين .
إن سلاحنا غير مجيد كسلاحكم ، لكنه ليس بالسلاح الذميم .
ثق بأنى أدرك هناءك أكثر مما تدركه ،
وأنى فى هذا لمقدِّمَةٌ عليك .
تحسب رابطة دانية تجعل السعادة فى اتحادنا ،
والسعادة خافية عنى وعنك ؛
وتحثنى على الرضا والتسليم تحدوك الشجاعة وحسن القصد .
فالحمد للآلهة أن وهبتنى الثبات ،
فلم أرض بهذا الحلف الذى تأباه .

طواس ليس الإله هو الذى ينطق فيك ،
بل قلبك هو الذى يحاجّ .

إيفيجينيا الآلهة تخاطبنا عن طريق قلوبنا .

طواس ألا يحق لى أيضا أن أسمعها ؟

إيفيجينيا العاصفة تطغى على الصوت العذب .

طواس فلا يسمعه سوى الكاهنة ! ؟

إيفيجينيا فليتبينه الأمير قبل الجميع !

طواس وظيفتك المقدسة وحقك الموروث فى صحبة چوبتير ،
يدنيانك من الآلهة أكثر من هذا الوحش ،
المولود على هذه الأرض ،

إيفيجنيا هكذا أكفر عن الثقة التى انتُزعت قسرا .

طواس إنى بشر فخير أن نحسم الأمر .
ليكن إذن ما وعدتك به ،
كونى الكاهنة التى اختارتك الإلهة .
ولتغفر لى ديانا ما حبست من ضحاياها السابقة ظلما ،
فاستهدفت من جرائها لتأنيب الضمير .
ما كان يقرب ساحلنا غريب إلا مسّه الضر ،
فموته هنا محقق من قديم .
لكنكِ أسرتنى برقة أرى فيها تارة عذوبة الحب البنوى ،
وأخرى ميل العروس الدفين ،
فأرضى غاية الرضى .
أجل ، لقد كبلتنى بمثل قيود السحر فنسيتُ واجبى ،
وخدرتِ حواسى ، فلم أشعر بتذمر شعبى .
والآن ترتفع صيحة الشعب فوق رأسى ،
ملقية عليه تبعة موت ولدى قبل الأوان ،
فلن أقف بعد الآن شعبا يلحف فى طلب القربان .

إيفيجنيا لم أرغب يوما فى شىء من أجل نفسى .
ويخطئ فهم الآلهة من يتوهمها تتعطش إلى الدماء ،
أو يخالها على غراره قاسية الرغبات ،
ألم تنتزعنى الإلهة بيدها من يد الكاهن ؟
لقد كانت أحفل بخدمتى منها بموتى .

طواس العادة المقدسة لا تفسر كما نشتهى ،
ولا يخرّج فيها بما يمليه العقل غير الرصين ،
فافعلى واجبك وسأؤدى واجبى .
إن فى قبضتى غريبين لا يجلبان الخير لبلادى ،

قد ضبطا متواريين فى مغاور الساحل .
فليكن فيهما الضحية الحقة والقربان الأول لإلهتك ،
بعد إذ طال عليها احتباس القربان .
سأبعث بهما إليك .
وأنت تعلمين ما عليك أن تصنعى .

المنظر الرابع

إيفيجنيا (وحدها) عندك أيتها المنقذة الرحيمة سحاب ،
تطوين فيه المضطهدة البريئة ،
وتبعثينها مع الريح إلى مصيرها القاسى .
تحملينها من بين الأحضان فوق البحر والبر الفسيح ،
إلى حيث يروقك أن تحملى .
حكيمة أنت علّامة الغيب ،
ليس ما فات عندك بالمنتهى .
ترعى عيناك ذويك ، ويشع على الأرض نورك ،
باعث الحياة فى جوف الليل .
صونى يدى أن يلطخها الدم ،
فما جلب الدم خيراً أو راحة قط .
فقتيل الصدفة يترصد طيفه للقاتل المكره الحزين ،
ويفزعه ساعات جد منحوسات .
الآلهة تحب للإنسان ذرية صالحة ،
وتمد لهذا الفانى فى حبل الحياة الخاطفه ،
وتهيىء له التأمل فى سمائها الأبديه ،
وتمتعه لحظة بالمشهد البهيج .

الفصل الثانى

المنظر الأول

أوريست . بيلادس

أوريست إنها لطريق الموت تلك التى نسلكها ،
فكل خطوة فيها تذهب بالروح .
عندما ضرعت إلى أبوللون أن يصرف عنى
سوء الحاشية الكريهة من زبانية الانتقام ،
خيّل إلىّ من كلماته الإلهية الأكيدة ، التى تحيى الرجاء ،
إنه يعدنى العون والنجاة ،
فى معبد أخته الحبيبة . فى طوريس ، حيث لها السلطان .
فالآن يصدق وعده ،
فتكون نهاية الضيق كله بانتهاء الحياة .
ما أيسر ما أحرم نور الشمس الجميل ،
أنا الذى ترهق يد الآلهة صدره وتخدر حواسه ،
وقد قدّر لأحفاد أتريوس أن لا تكون خاتمتهم فى المعارك ،
وأن لا تكون هذه الخاتمة مكللة بالفخار .
فهل قدر لى ، مثل الذى قدر لأجدادى وأبى من قبلى ،
فأدمى كدابة الضحية فى ميتة أسيفة ؟
لتكن مشيئة الآلهة ، فلخير لى أن أموت هنا أمام الهيكل ،
ولا أموت فى ركن موبوء ،
يرمى فيه شباكَ الغدر قاتل مغتال من أهلىَ الأدنين .
فدعينى فى سلام إلى أن أقضى أيتها الجن !

يا من تتأثرين خطاى كالكلاب الطليقة ،
تتشمم دمى الذى يقطر من قدمى ويخضب طريق .
دعينى ، فعما قريب أهبط إلى حضيضك .
فضوء النهار لا ينبغى أن يراكن أو يرانى ؛
وبساط الأرض السندسى الجميل حاشاه أن يكون ملعبا ،
تمجن فيه الغيلان .
هناك فى مقامك الأسفل أطلبك ،
وهناك يجمعنا مصير واحد فى ليل أبدى بهيم .
أما أنت يا بيلادس فشدما أكره أن أصطحبك قبل الأوان ،
إلى هذه الأرض ، أرض الأحزان .
وشدما آسف أن يكون رفيق البرئ ،
شريكى فى ذنبى وفى منفاى .
إن حياتك وحدها تبعث فىّ الرجاء .
وموتك وحده يحرك فى نفسى الهلع .

بيلادس لست بعد مثلك يا أوريست مستعدا للهبوط إلى تلك الحظيرة ،
حظيرة الأشباح ؛
فلا زلت أفكر فى الخروج إلى نعمى الحياة ،
من هذه المآزق الملتوية المفضية فيما يلوح إلى الليل الحالك ،
وما زال فكرى يتجه إلى غير المنون .
إنى أفكر وأصغى لعل الآلهة تلهمنى الرشاد ،
وتسلك بى الطريق إلى مهرب مموق .
أما الموت فسيان خشيته أو لم أخشه ، فهو لا ريب آت .
لكنه لن يكون تفكيرى إلا فى نجاتك ونجاتى .
حتى حين ترفع الكاهنة يدها لجز خصلنا ، وصوتها بالترتيل ،
فلا تجعل لليأس سلطانا على نفسك ،

فالشك حرىّ أن يتعجل الأخطار .
وقد وعدنا أبو للون أن نلقى فى قدس الأخت عزاء وعونا ورجعة .
وكلام الآلهة لا يحتمل التأويل ، الذى يتصوره المكروب فى ساعة الضيق .

أوريست لقد طرحت أمى على رأسى غطاء الحياة القاتم ،
فشببت مثالا من أبى ترميها نظرتى الخرساء باللوم المرير ،
وتقابل إعزازها بغير الأعزاز .
كم ارتميت مكروبا على صدر أختى ألكتره ،
وهى تستدفئ هادئة فى البهو الرحيب .
وكم رعيتها مملقا وهى تبكى بكاءا مرا ،
فإذا كفكفت الدمع جعلت تتحدث عن أبينا العظيم حديثا مسهبا .
كم توسلت أن أراه وأن أصحبه ،
ورجوت أن أقصد إلى طرواده معه أو يعود عما قريب .
ثم جاء اليوم —

بيلادس دع زبانية الجحيم تسمر بالليل فى شأن تلك الساعة ،
ولتهبنا نحن ذكرى الأيام الهنيئة قوة جديدة لشوط جديد .
فالآلهة تطلب لخدمتها على هذه الأرض الواسعة خيارا عديدين ،
وما زلت أنت فى حسابها ،
إذ لم تبعثك برفقة أبيك إلى أوركوس ،
وهو ذاهب إليها كرها .

أوريست ليتنى تعلقت بأذياله وتبعته .

بيلادس لكن الذين استبقوك كانوا يعنون بأمرى ،
فما كنت عسيا أن أكون لو لم تكن حيًا ؟
لا أدرى . فقد عشت منذ طفولتى لك ولأجلك ،
ولا ينبغى أن أعيش لغير ذاك .

أوريست لا تثر ذكرى الأيام السعيدة حين كان بيتك يكرم مثواى ،

وأبوك الكريم يرعى بالحكمة والحب تلك الزهرة الصغيرة الذابلة .
حين كنت لى ذلك الرفيق الطروب تحوم كل يوم حولى ،
وترفرف فوق الزهرة القاتمة كالفراش البهيج اللطيف ،
تجدد فىّ الحياة ؛
تنفخ فى روحى من مراحك ، فتنسينى الضيق ،
وتطلق العنان للأمانى فى فورة الشباب .

بيلادس بدأت حياتى يوم أحببتك .

أوريست بل قل ، تصدق ، بدأ كربك .
إن ما يزعجنى من مصيرى أنى كالطريد الموبوء ،
يبطن صدرى الموت ويكن الألم ،
وأنى حين أحل بالمكان السليم ،
لا تلبث الوجوه النضرة أن يعلوها الألم من موت بطىء .

بيلادس كنت حريا أن أليك فى هذه الميتة ،
لو أن أنفاسك يا أوريست تنفث السم .
لكننى ألست على الدوام المرح الشجاع ؟
والمرح والحب جناحان لجلائل الأعمال .

أوريست جلائل الأعمال ! أجل ، أذكر يوم كانت نصب أعيننا ،
حين كنا نهم معا ، نعدو فى الجبل وراء الصيد ،
ونقطع فى أثره الوديان ؛
وإذ نحن فيما ولى من الزمان لنا صدر جدنا العظيم وقبضته الباطشة ،
نحمل الهراوة والسيف فى طلب الوحش ،
ونجد فى أثر اللص نبغى اقتناصه ؛
فإذا ما أقبل الليل هدأنا على ساحل البحر العريض ،
وجلسنا متساندين والموج يبلغ بعبثه الأقدام ،
تترامى أمامنا الدنيا الفسيحة ،

ويتلمس أحيانا أحدنا سيفه ،
ويطالعنا المستقبل من جوف الليل ،
بأعمال كالنجوم زاخرة حولنا .

بيلادس العمل الذى تحفزنا النفس إليه لا آخر له ،
نروم أن نؤديه بالقدر الذى ينمو به ويتعاظم ،
وتدرجه أفواه الشعراء على كر الأيام عبر البلدان جيلا بعد جيل .
إن ما أدى الآباء ذو وقع جميل ،
حين يستعذبه الفتى فى نغم القيثار ،
وهو يستجم مساء فى الظل الساجى .
وما نعمله نحن هو ما عملوه : عمل مضن قليل الجدا .
نعدو هكذا فى أثر ما يفر ، ولا نلتفت إلى مواطئ الأقدام ،
نكاد لا نلمح إلى جانب خطانا خطى أجدادنا ،
ولا نستبين آثار حياتهم على هذه الأرض .
نتعقب أبدا ظلهم الذى يتوج كالآلهة قنن الجبال ،
ويستوى فوق السحاب الذهبى فى الأفق البعيد .

لا وزن عندى للذى يفكر فى نفسه ،
وفى كيف يريد أن يرفعه الشعب .
فلتحمد الآلهة أيها الفتى ،
أن أدت على يدك الكثير بهذا التبكير ..

أوريست إذا حبت الآلهة الإنسان بمسرة ،
كأن يدفع عن ذويه شرا أو يوسع حقا ،
أو يؤمن حدودا ، أو يهزم أعداء قدامى ،
يتعلقون بأذيال الفرار ،
فالشكر واجب عندئذ للإله ،

ذلك بأنه حباه فى الحياة بغبطتها الأولى والأخيرة .
أما أنا فقد اتخذتنى الآلهة قصابا ،
واختارتنى قاتلا للأم التى يخفض لها الجناح ،
فقضت علىّ بإشارتها ،
وانتقمت للعمل الشائن انتقاما شائنا .
ثق بأن قضاءهم نزل ببيت طانتالوس ،
وأنا آخرهم فلن أقضى بلا وزر ، ولن أذهب موفور الكرامة .

بيلادس ليس من الابن تنتقم الآلهة على ما اقترف الآباء ،
فكل ، صالحا كان أو طالحا ، يلقى على ما قدمت يداه الجزاء .
فإذا كان ثمت ما يورث فبركة الوالدين ،
ولن يرث اللعنةَ الأبناء .

أوريست ما أحسب بركتهم تدفع بنا إلى هذا المكان .

بيلادس إنها على الأقل مشيئة الآلهة الأعلين .

أوريست إذن هى مشيئتهم التى تدفع بنا إلى الدمار .

بيلادس اصدع بما تأمرك به الآلهة ثم انتظر .
فإذا جئت أبوللون بأخته وأقاما معا فى دلفى* ،
موضع التبجيل من شعب نبيل ،
فسوف يغفر لك الإلهان العظيمان ما اقترفت ،
جزاء ما قدمت .
وسوف ينقذانك من أيدى الجن ، بنات الجحيم ،
اللواتى يتهيبن الدنو من هذه الغابة المقدسة .

أوريست بذا سوف ألقى على الأقل حتفاً هادئا ،

بيلادس بل الأمر فيما أرى على النقيض ،

(*) مدينة عظمها اليونانيون القدماء لاحتوائها معبد أبوللون ، ولما نزل فى هذا المعبد من الوحى الإلهى . وقد كان لكهنته نفوذ كبير فى الأمور الدينية والسياسية والأدبية ، وكانت حكمتهم موضع تقدير الكبار .

وما كنت أخرق حين ربطت الماضى بالمستقبل ،
ولا حين فسرت الأمر فى سكون .
ومن يدرى فلعل العمل العظيم قد نضج فى رأى الآلهة ،
من أمد طويل .
إن ديانا تزهد فى هذا الساحل القاسى — ساحل الهمج ،
وفى ضحاياها البشرية الدامية .
وقد قدر أن يتم العمل الجميل على أيدينا ،
وبات فرضاً علينا واجب الأداء .
وها نحن من عجب أولاء على الأبواب مسوقون .

أوريست ما أقدر افتتانك حين تجمع بحكمتك ،
بين مشيئة الآلهة وأمانيِّك .

بيلادس وما حكمة الإنسان إذا هى لم تصغ ،
إلى مشيئة أولئك الذين فى الأعالى ؟
إن الآلهة تختار للعمل الجسيم رجلا نبيلا كثير الخطايا ،
وتعهد إليه فى تأديته ، وإن بدا لنا محال الأداء .
والنصر للبطل ، فهو يخدم الآلهة بتكفيره ،
ويخدم العالم حابيه بالتكريم .

أوريست أقدر لى أن أعيش وأن أعمل ؟
لتذهب الآلهة إذن بذلك الزيغ عن جبينى المثقل ،
فإنه ليجذبنى إلى الموتى ،
فى طريق لزجة بدم الأم .
لِتُغض برحمتها تلك العين التى تلطخنى إلى الأبد ،
بما ينبجس من جراحها فى وجهى .

بيلادس ثق بأن هذا سيكون فهدئ روعك ،
ولا تجعل للجن عليك سلطانا فيستفحل الشر .

دعنى أفكر وحدى ، والتزم أنت الهدوء ،
وإذا اقتضى العمل آخر الأمر توحيد الجهود ،
ناديتك ، فخطونا معا لنحقق الغايات فى جرأة وثبات .

أوريست اسمع أودسيوس* يتكلم !

بيلادس لا تسخر ! فلكل امرئ ما اختار من بطل ،
يترسم خطاه إلى أولمب .
وإنى أصدقك أن المكر والحجى لا يشينان الرجل ،
وقد وهب نفسه للجريء من الأمر .

أوريست إنى لأقدر الرجل الشجاع يتدرع بالاستقامة ،

بيلادس ومن ثم لم أسألك رأيا .
لقد خطونا بالفعل خطوة ،
واستخلصت من حرسنا الكثير إلى الآن .
فهنا لك امرأة تشبه الآلهة ، ليست من أهل هذه الديار ؛
أنها تعطل الشريعة الدموية ،
فقربانها للآلهة فؤاد طاهر ، وبخور وصلاة ،
إنهم يمجدون هذه الطيبة ،
ويظنون أنها أمازونة ،
فرت إلى هنا من مصاب جسيم .

أوريست يخيل إلىّ أن مملكتها الرائعة ،
قد فقدت همتها من جوار أثيم ،
تطارده اللعنة كالليل العريض ،
وترخى عليه سدول الخفاء .

(*) بطل يو. نلده هومر فى أوديسيته ومجّده . تظاهر بالجنون تهربا من الاشتراك فى الحملة على طروادة لكنه حمل على الا فيها بعد أن تبينت خدعته فامتاز فى حرب طروادة بالحكمة وسعة الحيلة والمكر كما امتاز بالشجاعة والإقدام ، فلما مات أخيل كانت أسلحته من نصيبه ، وبات أكبر رأس فى معسكر اليونان ، وقد كان من بين من اختبأوا فى بطن الحصان الخشبى ، ودخلوا طروادة بهذه الوسيلة .

ان تعطش الدين إلى الدم ، يُطلق السنة القديمة من عقالها ،
لتلحق بنا الدمار ؟
ووحشية الملك ستردينا ، فلن تنجينا منه امرأة إذا غضِب .

بيلادس ليهننا أنها امرأة ؛
فالرجل يتعود القسوة ولو كان من خيار الناس ؛
يشترع القانون آخر الأمر مما كان يستنكره ،
وتنتزع العادة الرحمة من قلبه ،
وتكاد تبدله ذاتا غير ذاته .
أما المرأة فوحدها التى تثبت على فكرة تستسيغها
وترتقب منها الخير قبل الشر —
صه ! إنها قادمة ؛ فدعنا وحدنا !
لن أذكر لها أسماءنا فى الحال ،
ولن أطلعها على أمرنا فى غير ما حذر .
فاذهب أنت ، وسألحق بك قبل أن تكلمك .

المنظر الثانى

إيفيجنيا . بيلادس

إيفيجنيا من أين أنت أيها الغريب ، ومن أين مقدمك ؟ تكلم !
يلوح لى أنك إلى اليونان أقرب منك إلى السيت (تفك قيوده) ،
خطرة هذه الحرية التى أمنحها !
فلتدفع الآلهة ما يتهددكما .

بيلادس أيها الصوت العذب والنغمة المشتهاة من لغتنا فى البلد الغريب .
مرحبا بالجبال الزرق فى مرفأ الآباء تتبدى للأسير من جديد

لتكن هذه الغبطة توكيداً لك بأنى أنا أيضا من الإغريق .
لقد نسيت لحظة شدة حاجتى إليك ،
فاتجهت روحى إلى مظهرك الرفيع .
فمن أى السلالات أصلك الإلهى ؟ قولى بربك !
أو يكون القضاء يطبق شفتيك !

ايفيچنيا الكاهنة التى اختارتها الإلهة نفسها وقدستها هى من تكلمك ،
فليكفك هذا وقل لى من أنت ،
وأى قضاء مبرم مشئوم طوح بك وبرفيقك إلى هذا المكان ؟

بيلادس هين علىّ أن أحدثك عن السوء الذى يسوقنا وننوء بصحبته ،
فهل يسيرٌ كذلك أن تحيينا أيتها المقدسة بنظرة الأمل السارة ؟
إننا من كريت من أبناء أدراست ،
وأنا الأصغر وأدعى سيفالوس .
أما الآخر فرشيد البيت ويدعى لوودامـاس ،
توسطنا أخ فظ غليظ القلب فمزق وحدة الصبا ،
وكدر صفاء حداثتنا الأولى .
وأطعنا نحن كلمات الأم ، إذ أبونا يحارب طروادة .
وإنه ليعود مثقلا بالغنائم إذ به يقضى نحبه بعد العودة بقليل ،
فشجر الخلاف بين الأخوة على الملك وتنازعوا الميراث ،
فانحزت أنا إلى جانب الأكبر ، وقتل الأكبر أخاه .
وطاردته الجان فى كل مكان ، لما يحمل من تبعة الدم المسفوك .
وبعثنا أبوللون الدلفى إلى هذا الساحل الموحش ،
يعمر صدرينا بالرجاء .
وطلب إلينا أن ننتظر يد العون فى معبد أخته تفعمها البركات .
وقد سيق كلانا أسرى إلى هنا ،
وقدمنا كما تعلمين إليك قرابين .

إيفيجنيا أسقطت طروادة ؟ أكد لى ذلك أيها الرجل !

بيلادس إنها طريحة فأكدى لنا النجاة .

عجلى بالعون الذى وعد إله ، وارحمى أخى !

قولى له كلمة طيبة وترفق به حين تكلمينه ،

فأنى لهذا شديد الرجاء .

فسَهْلٌ أن يستخفه الطرب ، و يتملكه الألم ،

وتستفزه الذكرى فيتحطم .

إن خبلا ينتابه فيهزه بحرانه ،

وتنتهب الجن نفسه الحرة الجميلة .

إيفيجنيا إن خطبك مهما يكن عظيما فأنى أناشدك أن تنساه ،

حتى ترضينى .

بيلادس إن المدينة الشامخة التى قاومت عشر سنوات طوال ، كافة جيوش اليونان

مدكوكة اليوم فلن تقوم لها قائمة .

لكن قبورا للأكرمين منا تبعثنا على التفكير فى ساحل الهمج ،

فأخيل راقد هناك مع صديقه الجميل ،

إيفيجنيا وأنتم يا أشباه الآلهة مآلكم أيضا إلى التراب !

بيلادس و بلاميدس أيضا وأياس بن تيلامون ،

لم يشهدا من يومئذ نهار الوطن .

إيفيجنيا (لنفسها) إنه صامت عن أبى لا يذكره بين الأموات .

إنه ما يزال على قيد الحياة ، وسوف أراه .

ليفعمك الأمل أيها القلب العزيز .

بيلادس مرحومون أولئك الألوف الذين استعذبوا الموت ،

مريرا من أيدى الأعداء .

فقد نكب العائدين إله ساخط ،

فأبدلهم المخاوف بدل الظفر ،

ورماهم بالفزع وسوء الختام .
أو لم يبلغكم ما قال الناس ؟
إنه يحمل أنّى وصل ، صرخة ما اقتُرف من منكرات .
إذن أنت تجهلين الخطب الذى نزل بقاعات ميسين ،
وأرسل فيها التنهدات تلو التنهدات ؟
احتبلت كليتمنسترة زوجها فى يوم رجعته ،
وقتلته بمعونة إيجست —
أراك تجلين هذا البيت المكى !
وأشعر بقلبك يدافع عبثا كلمتى الهائلة ،
وقد جاءت مفاجئة .
أكريمة صديق أنت ؟ أولدت قريبا من المدينة ؟
لا تكتمى عنى خبرك ، ولا تأخذينى
بأنى كنت أول من حمل إليك نبأ هذه الفظيعة .

إيفيجنيا خبرنى كيف تمت تلك الشنيعة النكراء !

بيلادس فى يوم أوبة الملك ، وهو صاعد من الحمام ،
منتعش الروح ، راضى النفس ،
طاب من زوجه أن تناوله الرداء ،
فألقت عليه هذه المهلكة ، نسيجا مشوشا كثير التثنى ،
وطرحته عمدا فوق كتفيه ، وقنصت به رأسه الكريم ،
وإذ هو عبثا يجاهد ليفلت ،
كما لو كان يتخلص من شراك ،
عاجلته ضربة الخائن إيجست ،
فانتقل مسجى إلى عالم الأموات ،
وفاضت فى الشرك روح ملك عظيم .

إيفيجنيا وأى جزاء لقى المتواطئ ؟

بيلادس ملكا وفراشا ملكه من قبل

إيفيجنيا بذا دفعت إلى المنكر متعةٌ منكره !

بيلادس وأسى عميق من ثأر قديم .

إيفيجنيا وكيف أساء الملك إليها ؟

بيلادس بعمل يعذرها جد جسيم ،

إذا كان عذر هناك من القتل .

عندما اعترض الإغريقَ فى السفر إلهة

وسلطت عليهم رياحا هائلة ،

استدرج الملك زوجه إلى أوليس (١)

واستقدم إيفيجنيا كبرى بناته إلى مذبح الإلهة ديانا ،

فسقطت ضحية لخير اليونان .

يقولون إن هذا أوغر صدرها ،

فأسلمت نفسها إلى خطب إيجست ،

ورمت القرين بشباك الهلاك .

إيفيجنيا (مخفية وجهها) كفى ! وإلى اللقاء !

بيلادس (وحده) يلوح لى أن مصير البيت المالك ،

قد أثر فى نفسها أبلغ تأثير .

وكائنة من كانت فهى بلا ريب تعرف الملك كل المعرفة .

ولعلها بيعت إلى هذه البلاد من بيت عظيم ، لسعد جدنا .

فهدء روعك أيها القلب العزيز وروّح عنك ،

ولنجذب إلينا الأمل فى حكمة ،

فها هو ذا نجمه يأتلق ،

وليفعمك لقاؤه الشجاعة والفرح .

---

(١) مكان فى الأرض اليونانية المسماة بيؤوتيا ذات المرفأ المشهور الذى تحدثنا الأساطير باحتشاد اليونانيين غزاة طروادة عنده تحت إمرة أجاممنون الذى قدم ابنته ايفيجنيا عندئذ قرباناً . وتسمى أوليس الآن قره بابا .

الفصل الثالث

المنظر الأول

إيفيجنيا . أوريست

إيفيجنيا أيها المنكود الحظ ! إنى أحل وثاقك لمصير أنكد من مصيرك .
فالحرية التى يمنحها قدس الإلهة ،
كاللحظة الرائعة الأخيرة فى حياة المريض العديم الرجاء ،
تحمل الموت .
لكنى لا أملك أن أقول ولا ينبغى أن أقول بعد ، إنكما من الهالكين .
وكيف أستطيع أن أقربكما للموت إثما وغيلة ؟
وما ينبغى لأحد ، كائناً من كان ، أن يمسكا بسوء ،
ما دمت هنا كاهنة لديانا .
لكن الملك الحانق يقتضينى هذا الفرض ؛
وهو سيختار عذراء من بناتى لأدائه عنى ،
إن أنا أبيته عليه .
عندئذ لن تغنى فى إسعافك سوى الأمانى الحارة أيها المواطن العزيز

إن أحط الخدم إذا مرَّ بمنازل آبائنا الآلهة ،
حق له علينا الترحيب فى البلد الغريب .
فكيف بكما يا من تحملان صورة الأبطال
الذين علمنى والداى تبجيلهم ،
فبت أبجلهم من ذلك الحين .
فيا من تثلجان صدرى بالأمل الجديد الجميل ،

كيف أفيكما من الغبطة والبركة حق الترحيب .

أوريست أتكتمين اسمك وأصلك عن قصد حكيم ؟
أم لى أن أعرف من التى تلقانى كملائكة السماء ؟

إيفيجنيا لا بد لك من معرفتى ؛ لكن خبرنى الآن بما سمعت نصفه من أخيك .
كيف كانت خاتمة الذين عادوا من طروادة ،
فتلقاهم على عتبة الدار قضاء قاس لم يكن فى الحسبان .
حقا إنى جيء بى إلى هذا الساحل صغيرة ،
لكنى ما زلت أذكر نظرة الحياء التى أرسلتها إلى هؤلاء الأبطال ،
تزجيها الدهشة و ينتابها القلق .
لقد خرجوا كما لو كان أولمب انشق ،
فتهاوت أشباح السلف العظيم ترعب من أليون(*) الجنان ،
كان أجا ممنون جليلا فى مقدمة الجميع فقل لى ،
أسقط وهو يدخل بيته من يد زوجه وايجست غيلة وغدراً ؟

أوريست لقد ذكرت الخبر اليقين .

إيفيجنيا عفاء عليك يا ميسن المنكوب !
لقد نثر أحفاد طانتالوس اللعنة فوق اللعنة
بأيد مليئة طائشة ،
وخلفوا لأولاد أولادهم قتلة من ذوى الأرحام
يتوارثون الغل إلى الأبد .
فهم كالنجيل يهز الرؤوس الهائجة ،
وينثر من حوله بذور البغضاء طبقات .
أفصح عما عجل الرعب بإخفائه عنى من حديث أخيك .
ماذا أصاب آخر أبناء ذلك البيت العظيم ؟
كيف نجا الطفل الظريف أوريست من دم ذلك اليوم ،

(١) أليون أو اليوس اسم لطروادة .

وقد فرض عليه أن يثأر له ؟
أرماه مصير كمصير أبيه بشباك أثرينوس[١] أم نجا ؟
أيعيش وتعيش ألكتره ؟

أوريست يعيشان .

إيفيچنيا أيتها الشمس الذهبية ! أعيرينى أروع أشعتك !
واطرحيها شكراً أمام عرش چوڤى[٢]
فإنى عاجزة بكماء .

أوريست أضيفة كنت لهذا البيت الملكى ؟
أتربطك به أواصر وثيقة ينم عنها اغتباطك الجميل .
إذن فأربطى جأشك وامنعى القلب أن يثب .
فكل ردّة إلى الألم بعد غبطة غامرة ،
صدمة قاهرة ، وعبء لا يطاق .
إنك لا تعلمين فيما أرى سوى أن أجا ممنون قد مات .

إيفيچنيا أليس فيه الكفاية ؟

أوريست سمعت نصف الفظيعة .

إيفيچنيا وماذا أخشى بعد ؟ أوريست وألكتره يعيشان .

أوريست أولا تخشين على كليتمنسترة شيئاً ؟

إيفيچنيا ليس ينجيها رجاء أو خوف .

أوريست هى أيضا قد قصت عن أرض الرجاء .

إيفيچنيا أهاجها الندم فقتلت نفسها ؟

أوريست بل لقيت من دمها حتفها .

إيفيچنيا أفصح ولا تحملنى على طول التفكير .

---

(١) بحيرة على مقربة من نابولى تنمو الكروم على ضفافها ، ولا يتفق مظهرها الراهن والصورة القاتمة التى صورها بها القدماء إذ تخيلوها محط الظلمة ومبعث أبخرة شيطانية تقتل ما يحلق فوقها من طير .
(٢) المشترى .

إن الغموض يضرب حول رأسى الخائف
بأجنحته المعتمة المتراكبة .

أوريست هل اختارتنى الآلهة إذن لأعلن صنيعا
ليس أحب إلىّ من دفنه فى مغاور الليل الأصم الصامت ؟
على الرغم منى ما يقتضينى فمك الطاهر ،
فهو وحده الذى يجوز له طلب المؤلم وتلقّيه .
يوم سقط الأب أخفت ألكتره أخاها بغية إنقاذه ،
فكفله ستروفيوس حمو أبيه على الرحب والسعة ،
ورباه إلى جانب ولده بيلادس .
فتوثقت بينه وبين الربيب أجمل أواصر الوداد ،
وكلما نموا نمت فى صدرهما جذوة متقدة ،
وذكت فى نفسيهما شهوة الانتقام للملك القتيل .
وبلغا ميسن فى زى الغرباء على حين غفلة ،
وكأنهما ينعيان أوريست ويحملان رفاته .
فأكرمت الملكة وفادتهما ، وحلاّ ضيفين .
وعرف أوريست ألكتره بنفسه .
فأذكت فيه نار الانتقام ، وكانت قد خبت ،
فى حضرة أمه وقربها المقدس .
وقادته خفية إلى الموضع الذى راح أبوه فيه ضحية الغدر ،
وكانت أرضه ، وقد كثر ما غُسلت ،
ما تزال تصطبغ بخطوط باهتة ، تنطق بالأثر الخفيف القديم ،
لدم ساهمت الجرأة فى سفكه .
وجعلت ألكتره بلسان من نار ،
تصف ظروف الفعلة الشنعاء ،
وتقص عليه نكدها وذلّها وغطرسة الخائن الهانئ السعيد .

وأخذت تشير إلى الأخطار التى تحيق بأخوة
من أم هى زوج لغير أبيهم .
ثم دست فى يده الخنجر العتيق ،
الذى طغى من قديم على بيت طانتالوس ،
وأشرب حده سموم البغضاء .
وكان ما كان ، فقضت كليتمنسترة بيد الابن .

إيفيجنيا أيها الخالدون الذين تحيون نهاركم الصافى ،
فوق الجهام المتجدد تحدوكم الرحمة ،
أعزلتمونى عن الناس هذه الأعوام ،
وادخرتمونى لعمل من أعمال الأطفال ،
لأقوم على إذكاء ناركم المقدسة ؛
واجتذبتم روحى المندلعة كالشعلة ،
إلى منازلكم الرفيعة العلية ،
فى صفاء التقى ونقاء الخلود ،
ليكون شعورى بشنائع بيتى ،
أعمق فى الأجل وأبعد غوراً ؟
حدثنى عن المنكود الحظ ، كلمنى عن أوريست !

أوريست ليت المرء يستطيع الكلام عن حتفه !
فما أشد جيشان روح الأم ،
وهى تصعد من دم الذبيحة تدعو المعمَّرات من بنات الظلام ،
إلى الأخذ بتلابيب قاتل أمه ،
وتهيب بهنّ : أن طاردن المجرم إنه لكنّ !
إنهن ينصتن ويُجلن النظر الأجوف فيما حولهن
نهماتٍ كالنسر .
إنهن يتحركن فى مغاورهن المعتمة ،

ويتسلل من زواياها زميلان لهن : الشك والندم ؛
يتقدمهن بخار متصاعد من أشيرون(*) .
إن التفكير الدائم فى الإثم ، يتقلب من حول رأس الأثيم
غيوماً دوّارة تخبله ؛
و بنات الليل ، وحقهن التدمير ،
يطأن الآن التربة الجميلة فى أرض بذرتها الآلهة ،
ونفتهن عنها من قديم لعنة قديمة .
إن أقدامهن الخشنة تتأثر الهارب ،
وترميه من بعد إمهاله ، بالرعب من جديد .

إيفيجنيا أيها المنكوب ، إنك فى مثل حاله ،
تحس ما يألمه ذلك الشارد المسكين .

أوريست ماذا تقولين ؟ وحال مَن تعنين ؟

إيفيجنيا إنك تمضك قتلة الأخ كما تمض ذاك فعلته ،
بهذا خبرنى أخوك الأصغر .

أوريست لا أطيق أن تخدعى بالقول الباطل أيتها النفس الكبيرة ،
فشبكة الأكاذيب ينصبها الغريب لغرض ينتويه ،
أحبولة للغريب وفخا لقدميه ، لأن المكر من شيمته ،
أما بيننا فالصدق !
إنى أوريست ! وهذا الرأس الآثم المطرق نحو الحفرة ،
يطلب الموت . فأيا كان مظهره فمرحبا به .

(*) نهر فى ايبروس يخترق مجراه الأعلى أرضا جبلية وعرة موحشة ثم ينساب فى هوة سحيقة مظلمة ضيقة طولها خمسة كيلومترات إلى سهل إيفرا حيث يتسرب فى بحيرة مستنقعة . وقد تولدت عقيدة القدماء فى الجحيم من هذه الهوة المقفرة المخيفة التى ينساب فيها النهر ومن أبخرة البحيرة الفاسدة — وإلا فأن أشيرون فى الأسطورة اليونانية هو نهر الجحيم الذى تجتازه أرواح الموتى من دون رجعة . وأشيرون أيضا هو ابن هليوس وجيئا الذى تروى الأسطورة عنه أنه زود التيتان مهاجمى السماء بالماء ، فعاقبه زيوس بأن حوله نهرا موحلا مآله إلى الجحيم .

أما أنت فكائنة من كنتِ ، فإنى أطلب لك ولصديقى النجاة ،
ولا أطلبها لنفسى .
إنه ليلوح لى أنك هنا على الرغم منك ؛
فدبرا خطة للهرب ودعانى وحدى .
وليهوِ من الصخرة جسمى هامداً ،
وليجر إلى البحر دمى ساخنا ،
يستنزل اللعنة على ساحل الهمج .
إذهبا إلى الوطن ، إلى أرض اليونان الجميلة ،
وابدءا صديقين حياة جديدة (يبتعد)

إيفيجنيا أهبطتِ علىّ إذن أيتها الحقيقة !
يا أجمل مولودة لأعظم أب ؛
ما أجسم ما يطالعنى من صورتك .
إن ناظرى يكاد لا يبلغ يديك الحافلتين بالثمار والبركة ،
مما نزّلت من كنوز أولمب .
وكما يدل على الملك سخاؤه —
إذ ما يغنى الالوفَ فى نظره قليل ،
كذلك أنت أيتها الآلهة ،
تُعرفين بالمدخر من هباتك التى تعدينها فى حكمة وطول أناة .
تعلمين وحدك ما ينفعنا ،
وترين المستقبل فى أفقه العريض .
بينما تحجب عنا رؤيتَه
غشاوةُ المساء من نجوم وغيوم .
إنك تسمعين ضراعتنا صامتة ،
ونلج فى استجابتها كالأطفال .

لـكن أيديك لا تقطف أبداً قبل الأوان ،
ما تؤتى السماء من ثمار كالنضار ،
فالويل لمن ينفد صبره معك ،
فإنه يذوق طعم المنون فى المبتسر الفج .
لا تدعى الهناء الذى طال انتظارى إياه
يفوت وقد كدت أن لا أتوقعه ،
ويضاعف الألم ، كطيف الصديق .

أوريست (يقترب منها ثانية) إذا دعوت الآلهة لك ولبيلادس ،
فاغفليني ، فإنك لن تنقذى بصحبتك المجرم ،
بل تشاطرينه اللعنة والضيق .

إيفيجنيا إن مصيرى رهن بمصيرك .

أوريست فى غير ما شئ ! فدعينى أذهب إلى الموتى وحدى .
فالأثيم لا يفوت عين الساهرات ،
ولو تخفى من خلف قناعك .
إن وجودك أيتها العلية سينحيهن جانبا ،
لـكنه لن يقصيهن .
وما ينبغى لهن دخول أرض الغابة المقدسة ،
ولا أن يطأنها بأقدامهن الجريئة القاسية .
إنى أسمع من بعيد قهقهتهن البغيضة ،
وأراهن كالذئاب يتربصن بى ،
كما تتربص بعابر سبيل ، علا شجرة طلباً للنجاة .
إنهن يرابطن فى خارج الغابة ،
يرتقبن خروجى من الحرج إليهن ،
فيصعدن يهززن رؤوس الشياطين ،

ويثرن الغبار فى كل الجهات ،
ويطلبن الطريدة ليفترسنها .

إيفيچنيا أفيك أوريست مطمع لكلمة طيبة ؟

أوريست أدخريها لصفىّ من أصفياء الآلهة .

إيفيچنيا الآلهة تضىء لك سبيل الرجاء .

أوريست بل ما أستبين خلال الدخان ،
هو الضوء الباهت — ضوء نهر الأموات ،
يضىء لى طريق الجحيم .

إيفيچنيا أليست لك أخت سوى ألكتره ؟

أوريست هذه هى الأخت التى عرفتها .
أما الكبرى فأنجاها طالعها من شقاء بيتنا ،
وكنا نحسب حظها مرعبا .
ناشدتك الآلهة أن تمسكى عن سؤالى .
وتبتعدى عن الأرينات[1] .
إنهن يذرنّ الرماد عن روحى ؛
إذ هن لا يُطقن أن تخبو فى نفسى ،
الجمراتُ الاخيرة من نار الفزع ،
والرعب الذى دب إلى بيتنا .
أفتريدين الجذوة مشبوبة أبداً ، مذكاة عمداً ،
يستبق ضرامها كبريت الجحيم ،
لتعذب روحى وتحرق نفسى ؟

إيفيچنيا انى أهب اللهيب بخورا عطراً .
فدع نفح الحب الطاهر يلطف بمرّه أوار صدرك !

---

(١) معناها باليونانية الحانقات وهى فى أساطير اليونان إلهات موكلات بالاقتصاص من الآثمين أو بغواية الإنسان ودفعه إلى الطيش والسفه فلا يزلن بالآثم حتى يكفر عن خطاياه أو يفقدنه الرشد .

أوريست يا حبيبى مالك لا تسمع !
أجمد الدم فى عروقك من آلهة الفزع ؟
أيشيع فى أعضائك سحر يبسها ،
كالسحر الذى يبعثه رأس جورجون[١] الكريه ؛
إذا كان صوت الدم المسفوك من الأم ،
يدعوك إلى جهنم بوقعه الأصم ،
أفلا تدعو الأخت الطاهرة آلهة أولمب بكلامها المبارك ؟

أوريست أسمع النداء ، أجل أسمعه ، أفتريدين إذن هلاكى ؟
أتتوارى فيك إلهة من آلهة الانتقام ؟
من أنت يا من يهز صوتها صميمى ويحركه من الأعماق ؟

إيفيجنيا هى أنا يا أوريست !
هى التى تعلن نفسها إليك فى صميم الفؤاد .
انظر إلى إيفيجنيا ! فما زلت قيد الحياة .

أوريست أنتِ !

إيفيجنيا أخى !

أوريست حسبك ! إليك عنى ! حذار أن تلمسى خصلى !
إن ناراً لا تخبو كالتى يبعثها ثوب عرس كرويزا[٢] تنبعث منى ؛
فدعينى !
أريد الموت كما أراده هرقل ، مفعما بالخزى ،
حبيساً فى نفسى ،
أنا الرجل المهين .

---

(١) فى أساطير اليونان ثلاث بنات يسكن حافة الأرض الغربية لا يلقين نظرتهن المرعبة على أحد إلا تحول إلى حجر . وقد أطلق عليهن كلمة جورجون ، لكن هومر ذكر هذه الكلمة دلالة مرعبة على إله الجحيم .

(٢) إبنة ملك كورنثيا كانت مخطوبة لياسون فقتلها ميديا .

إيفيچنيا إنك لن تقضى . فحبذا لو صافحت أذنى كلمة منك هادئة !
ألا ليتك تبدد شكوكى ، وتدعنى أوقن بالهناء الذى طالما تمنيت .
إن دولاب السرور والهم يدرج فى نفسى .
إن رعدة تعرونى من الرجل الغريب فتصدنى عنه ،
لكن فؤادى يجتذبنى إلى أخى .

أوريست أهذا معبد ليوس[1] ؟
أتتملك الكاهنة سورة مقدسة لا سبيل إلى كبحها ؟

إيفيچنيا ألا ليتك تستمع لى وتنظر إلىّ .
انظر كيف يتفتح قلبى بعد طول العهد ،
فيهفو إلى تقبيل رأسك يا أحب ما ادخرته الدنيا لى ،
وإلى ضمك بين ذراعىّ ، وقد كانتا لا تمدان لغير الرياح الجوفاء .
دعنى أفعل . دعنى ! فما تفجرت العين الأبدية فى بارناس[2] .
وفاضت من صخر إلى صخر ، منحدرة إلى الوادى الذهبى ،
بأصفى مما تنبجس الغبطة من صدرى ،
وتفيض كالبحر الزاخر من حولى .
أوريست ! أوريست ! أخى !

أوريست أيتها الحورية الحسناء ! انى لا آمن لك ولا أطمئن إلى ملقك ؛
إن ديانا تتطلب خادمات صارمات ،

---

(١) ليوس لقب باكخوس إله الخمر ومعناه باليونانية مفرج الهم وباكخوس أو ديوتيس هو كما تذكره الأساطير ابن زيوس من سيملا بنت الملك كادموس . كان يجوب البلدان بصحبة الحور ورفقة آلهة الغاب ذوى الأرجل الماعزية ومعهم الرعيان والعبيد وعلى رأس باكخوس أكليل مجدول من ورق الغار والليلاب وفى يده صولجان التفت عليه عيدان الكروم يلوح به ويهلل ومن معه ويضجون ويمرحون ويصخبون ويوزع أينما سار بنت الحان ويحتفل به فى كل مكان . ومن هذه الجولات المصحوبة بالاحتفالات نشأ فن التمثيل عند اليونان .

(٢) پارناس اسم فى التاريخ القديم لجبال صومالیه Sumalia اليونانية وهى جبال قدسها أبوللون وقدستها عرائس الفن وكان ديونيس إله الخمر الذى سبق ذكره يعقد فوقها طقوسه أو بالحرى عربداته . أما العين المعنية بكلام الكاهنة فعين كاستال المتفجرة من هذه الجبال وتعزى إليها الأساطير أسمى الأفكار حتى ضرب المثل بپارناس فى سمو الفكر .

وتثأر لقدسها إذا دنس .
فابعدى ذراعك من صدرى .
و إذا شئت أن تنقذى فتى تحبين ،
وأن تهبيه الهناء الجميل بهذا الحنين ؛
فاتجهى بقلبك نحو صديق ، فهو أولى بالكرامة منى .
إنه هائم فوق هذه الطريق الصخرية فابحثى عنه ،
واهديه سواء السبيل ، واعفينى !

إيفيجنيا هدئ روعك يا أخى ، وتبين من وجدت !
لا تصرف فرح الأخت السماوى الطاهر إلى نشوة أثيمة طائشة .
أيتها الآلهة اصرفى الزيغ عن بصره الجامد ،
فلا تنقلب اللحظة المفعمة بالغبطة شقاء مضاعفا !
انظر إلىّ أنا أختك التى فقدت من قديم .
اختطفتنى الإلهة من المذبح ، ومنحتنى فى قدسها النجاة .
أنت هنا أسير معروض للضحية ،
والكاهنة هنا هى أختك .

أوريست يا للمنكودة ! فلتشهد الشمس إذن من فظائع بيتنا الختام .
أإلكتره هنا أيضا لتشاطرنا مايحل بنا من وبال ؛
فلا تُنظر إلى مصير أشأم وآلام جسام !
حسنا أيتها الكاهنة ! انى أتبعك إلى المذبح .
فقتل الأخ فى بيتنا القديم تقليد ،
شكراً للآلهة ان شاءت اجتثاثى ولم أعقب ولدا .
أما أنت فنصيحتى لك ألّا يكون ميلك إلى الشمس شديداً ،
وألّا تتعلق كثيراً بالنجوم .
فهيّا اتبعينى ، ولنهبط معا إلى عالم الظلام .
فالجنس المحنق يبطش بنفسه ،

كما تبطش التنانين بعضها ببعض ،
وهى منبعثة من عين الكبريت،
وكما يقتل وحشها أخاه الوحش .
تعالى نهبط معا ، لا عقب تخلفين ولا وزر تحملين .
انك ترعيننى بعين الإشفاق فخلى عنك !
فمثل هذه النظرات كانت رسول كليمتنسترة إلى قلب الإبن ،
لكن ذراعه المنقضة لم تخطىء صدرها فصرعت الأم .
أظهرى أيتها الروح المتأبية !
تقدمى أيتها الجن فى حلقة موصدة ،
واشهدى الرواية المشتهاة !
فهى آخر ما أعدت أيديكن وأشده نكرا .
ليس البغض وشهوة الانتقام ما يرهف خنجرها ،
فالأخت الحبيبة مسوقة إلى الفعلة جد مرغمة .
كفكفى الدمع فلا جناح عليك ،
فما أحببت منذ سنيى الاولى شيئا ،
مثلما كنت حريا أن أحبك أختى .
طوحى فولاذك ولا تبقى علىّ !
مزقى هذا الصدر وشقى الطريق لفيوضه الجياشة فيه (يسقط إعياء) .

إيفيجنيا لا قبل لى وحدى بحمل هذا العناء والشقاء —
فأين أنت يا بيلادس .
أين ألقى معونتك أيها الرجل العزيز (تبتعد تبحث عنه) .

المنظر الثانى

أوريست وحده

أوريست (يتنبه من غيبوبته وينهض واقفاً) قدحا آخر !
ناولينى من فيوض ليته[1] قدح الانتعاش الأخير ،
فقريباً تهدأ فى صدرى معركة الحياة ،
وتنحدر روحى فى سكون إلى عين النسيان ،
إلى ضبابك الأبدى أيتها الأرواح .
أنزلى على طريد الأرض وابنها الشريد شيئاً من سكينتك
وروّحى عنه .
ما هذا التهامس الذى أسمع بين الأغصان ؟
ما هذا الحفيف الذى يتناهى إلىّ من تلك الظلمة ؟
إنهم آتون لاستقبال الضيف الجديد .
ما هذه الجماعة التى تغم أنفسها الغبطة كأنها بيت إمارة مجتمع ؟
إنهم يسيرون أحفياء بعضهم ببعض ،
كبيرهم والصغير ، رجالهم والنساء ،
أشباه الآلهة المتشابهون .
أجل هم بعينهم ، أجداد بيتى .
ها هوذا تييست يسير مع أتريوس منهمكين فى حديث خاص .
وها هم أولاء أولادهما يرتعون من حولهما متباسطين .
أزالت من بينكم العداوة ؟
هل انطفأت نار الانتقام من صدوركم كما ينطفئ نور الشمس ؟
إذن فأنا أيضاً على الرحب بينكم ،
ولى أن ألتحق بموكبكم المهيب .

(١) نهر فى أساطير الأولين تشرب منه أرواح الموتى فى الآخرة فتنسى هموم الحياة وآلامها .

مرحباً بكم آبائى ! أوريست آخر عقب لكم يحييكم .
لقد حصد ما زرعتم ، وهبط توقره اللعنة .
لكن الأعباء هنا تهون ، فخذوه بربكم بين ظهرانيكم .
لك إجلالى يا أتريوس ! وأنت أيضاً يا تييست !
فنحن هنا من العداء براء —
أريانى أبى الذى لم أره فى الحياة إلا مرة !
أهذا أنت يا أبى ؟ وتسير إلى جانبك أمى من دون كلفة ؟
فإذا جاز لكليمتنسترة أن تمد يدها إليك ،
فجائز أيضاً لأوريست أن يتقدم إليها ويقول :
انظرى ولدك !
انظرا ولدكما ورحبا به !
كانت كلمتنا على الأرض إشارة تعطى ليغتال بعضنا بعضاً .
وكانت ذرية طانتالوس الشيخ تطلب المسرات فى الناحية الأخرى من الليل .
أترحبون بى وتتلقوننى ؟
إذن إلى الشيخ ، إلى جدى الأكبر !
أين الشيخ لأراه ؟ أين الرئيس العزيز ؟
أين المحترم المبجل ؟ أين جليس الآلهة والمستشار ؟
أراكم تترددون ، ألا تبغون حولا ؟ فما خطبكم ؟
أيألم شبيه الآلهة ! تعساً لى !
لقد ضرب القادرون على صدر الشجاع آلاما جساما ،
ومكنوا لها بقيود من نحاس .

المنظر الثالث

أوريست . إيفيچنيا . بيلادس

أوريست — أهبطتما أنتما أيضا ؟ هنيئا لك أختى ! لـكنه أين إلـكتره ؟
ليبعثها إلينا إله كريم ، وينزلها أيضا على عجل .
وأنت يا صديقى لشد ما أرثى لك ، فتعال معنا .
تعال إلى عرش بلوتون(*) ليحيى المضيفَ ضيوف جُدُد .

إيفيچنيا — أيتها الأخوات اللواتى ترفعن لبنى الإنسان الضوء الجميل ،
فى السماء الفسيحة ، بالنهار وبالليل ،
ولا يجوز لـكن أن تمنحنه الراحلين ، انقذينا !
يا ديانا ! تؤثرين بحبك أخاك الـكريم
على كل ما تؤتيك الأرض والسماء ؛
وتتجهين بوجهك العذرى إلى نوره الأبدى مشوقة فى سكون ،
فهلاَّ صنت الوحيد الذى وجدته بعد طول السنين ،
فوقيته من أن يتخبط فى ظلماء الجنون .
فإن تـكن مشيئتك حين أخفيتنى هنا قد تمت ،
وكان رأيك أن تهبينى ؛ وتهبيه بى عونك المبارك ،
ففكى وثاقه من تلك اللعنة ،
فلا يفت وقت النجاة الثمين .

بيلادس — أتعرفنا ؟ وتعرف هذه الغابة المقدسة ؟
وتدرك هذا الضياء الذى لا يضىء الأموات ؟
أتحس ذراع الصديق وذراع الأخت ،

(*) إله الجحيم فى أساطير اليونان والرومان . يحاسب أرواح الموتى مع ثلاثة من قضاة الجحيم هم مينوس وأياكوس ورادامنتس .

وهما ما تزالان تحرصان عليك وتستبقيانك حيا
أمسك بنا بقوة فلسنا أشباحا جوفاء .
ألقِ بالك إلى قولى ، وألقِ إليه السمع ،
واستجمع نفسك فالوقت ثمين ،
والعودة معلقة بخيوط واهية ،
يغزلها كما يبدو عنكبوت رحيم .

أوريست (يخاطب إيفيجنيا) دعينى أنم لأول مرة بالغبطة الطاهرة ،
بين ذراعيك بقلب طليق .
أيتها الآلهة التى تسلطين جبروتك الملتهب ،
على السحاب الصفيق فيتشربه ،
والتى ترسلين من فضلك الغيث المرجو من أمد طويل ،
تمطرينه مع الرعد ، وتصبينه مع الريح ، فى الهزيم والصفير ،
فوق هذه الأرض ،
فلا يلبث القلق والوجل أن يحولا بركة ،
وأن تنقلب الدهشة الهائبة رضى وحمداً عالياً ؛
إذا كانت الشمس الطالعة تنعكس فى قطرات الأوراق ،
ألفاً من الشموس ،
وكانت إيزيس تمسح بيدها الرفيقة غشاوة الغيوم الأخيرة ،
فى رقة بهيه ،
فدعينى أنم أيضاً بين ذراعى أختى وعلى صدر صديق ،
بما منحتنى إياه ، وخلينى أستبقيه شاكراً أجزل الشكر .
إن اللعنة تحل عنى ، هذا حديث قلبى ؛
وإن بنات الجن ليرتحلن إلى طرطاروس(*) ، هذا ما يطرق سمعى ؛

(*) وهدة مظلمة نفى إليها زيوس التيتان . وقد صورت فيما بعد مكانا تلقى فيه أرواح الموتى العذاب وقد سبق ذكرها .

إنهن يغلقن وراءهن الأبواب النحاسية ،
فتقصف كالرعد من بعيد .
إن الأرض تعبق بعبير منعش ، وتدعونى إلى السطح ،
لأنشد فوقه مسرات الحياة ، وجلائل الأعمال .

نيلادس لا تضيعا الوقت المقسوم . ولتحمل الريح التى تفم أشرعتنا ،
غبطتنا كاملة إلى أولمب أولا .
تعاليا ! فالموقف هنا يقتضينا سرعة الرأى والتصميم .

الفصل الرابع

المنظر الأول

إيفيجنيا (وحدها)

إذا قدرت الآلهة لأحد من الناس خبالا شديداً ،
وأعدت له من الغبطة إلى الألم ، ومن الألم إلى الغبطة انتقالا مزعجاً ،
هيأت له فى المكان القريب أو الساحل الغريب ،
الصديق الرشيد ، ليكون فى عونه ساعة الضيق .
فيا أيتها الآلهة باركى بيلادس ، وكل ما يمكن أن ينهض به .
إنه فى الهيجاء ساعد الفتى ،
وفى المجتمع عين الشيخ البصيرة .
إن نفسه مطمئنة متمسكة بأهداب السكينة ،
و إنه لحفيظ على زخر الهدوء المقدس ،
الذى لا يعرف معينه النضوب .
وهو يمد الهائمين بالنصيحة والعون خالصين من الأعماق .
لقد انتزعنى من أخى وأنا تائهة مشدوهة ،
أحملق فيه من دون انقطاع ،
ولا أستطيع تناول الهناء .
أحرص عليه بين ذراعى ،
ولا أفطن إلى الخطر المحدق القريب .
الآن يمضيان ليتما مهمتهما ، قصدهما البحر ،
حيث تختبئ السفينة بالرفاق فى جون تترقب الإشارة .
لقد لقنانى كلمة رشيدة ،
وعلمانى ما أجيب به الملك حين ينفذ إلىّ من يستحث القربان .

أواه ! إنى أرانى كالطفل بحاجة إلى من يرينى الطريق ،
لم أتعلم المداجاة ولا خديعة أحد عن شىء فى يده .
ألا بعداً للكذب !
إنه لا يفرج الكرب ، كما تفرجه الكلمة الصادقة .
إنه لا يدخل العزاء على النفس ،
وهو يزعج حائكه فى الخفاء .
إنه يرتد إلى راميه من يد إلٰه ،
يحول سهمه عن مرماه .
إن صدرى يضطرب بالهم يلاحق الهم .
فقد تنتاب الجِنة أخى من جديد ،
وتبهظه على الساحل غير المبارك .
أيمكن أن يكونوا عثروا عليهما ؟
يخيل إلىّ أنى أسمع قعقعة سلاح تقترب — انظر !
ها هو ذا الرسول من عند الملك ،
آت إلىّ سريع الخطى .
إن قلبى يخفق ، ونفسى تُنم ، إذ أطالع وجه الرجل ،
الذى يراد أن ألقاه بباطل القول .

المنظر الثانى

إيفيچنيا . أركاس

أركاس — عجلى بالقربان أيتها الكاهنة !
فالملك ينتظر ، والشعب يترقب .

إيفيچنيا — كنت حرية أن أقوم بواجبى وأتبع إشارتك ،

لولا عقبة لم تكن فى حسابى ، حالت بينى و بين الأداء

أركاس وما الذى يعترض مشيئة الملك ؟

إيفيجنيا الصدفة التى لا يملك دفعها أحد .

أركاس ما هى لأعجل بإعلانها إليه ،

فقد قضى على الإثنين بالموت .

إيفيجنيا قضاء لم تبرمه الآلهة بعد .

فأكبر الرجلين يحمل وزر دمٍ سفكه لقريب ،

فالجن تطارده وتتأثر خطاه ،

وترميه بشرها فى قلب المعبد نفسه .

وقد دنس قدسيةَ المكان وجودُه فيه .

فالآن أبادر وعذارى إلى البحر

لأغمس تمثال الإلهة فى موجة جارية ،

وأقضى بذلك طقسا سريا .

فلا يزعج أحد موكبنا الصامت !

أركاس سأسارع إلى الملك بنبأ العائق الجديد .

فلا تشرعى فى الطقس المقدس قبل أن يأذن به .

إيفيجنيا هذا شأن الكاهنة وحدها .

أركاس مثل هذه الحالة النادرة ينبغى للملك أيضاً أن يعلمها .

إيفيجنيا إن مشورته كإشارته لن تغير من الواقع شيئاً .

أركاس كثيراً ما يستشار ذو السلطان ولو صورياً .

إيفيجنيا لا تلحف فى طلب ما يجب أن آباه .

أركاس لا تأبَ ما هو صالح نافع .

إيفيجنيا أتساهل إذا لم ترد إبطاء .

أركاس سأعجل بالنبأ إلى المعسكر ،

وأهرع إليك بما يقول .

فهلاّ حملتنى إليه رسالة فوق هذه ،
تفرج كل ما يكر بنا الآن !
إنك لم تأبهى لنصح الوفى .

إيفيچنيا لقد قمت راضية بما وسعنى .

أركاس قد تغيرين رأيك فى الوقت المناسب .

إيفيچنيا هذا أمر لا نملكه بحال من الأحوال .

أركاس أمحال عندك ما يكلفك جهداً ؟

إيفيچنيا إنما يلوح لك ممكناً ، لأن الرغبة تخدعك .

أركاس إذن ترومين مجازفة غير عابئة بشىء ،

إيفيچنيا فوضت الأمر جميعه للآلهة .

أركاس الآلهة تنقذ البشر على أسلوب البشر .

إيفيچنيا كل شىء فى الدنيا رهن إرادتها .

أركاس أقول لك إن الأمر بيدك .
وغضب الملك لارضاه هو الذى يعد للغريبين موتا زؤاما .
فقد سلا الجيش من أمد ذلك القربان القاسى ،
واستراح من ذلك الطقس الدموى .
بل غير واحد ممن رماهم شؤم الطالع إلى ساحل غريب ،
قد شعر فى نفسه كيف يلقى الضال الشريد المسكين ،
على حدود الغربة وجها إنسيا باشّا ،
ويرحب به كما لو كان إلهاً .
أفتصرفين عنا ما تستطيعين ؟
إن الرحمة التى تهبط من السماء على صورة إنسان ،
لايستقر سلطانها فى مكان ، بأسرع مما يستقر
فى البلد الذى يرزح فيه ، تحت أعباء الحياة الجسام ،
شعب جديد يجيش بالحياة والقوة والإقدام ؛

كئيب مستوحش ، فريسة لنفسه ولما يستريب .

إيفيچنيا لا تزعزع النفس التى تعجز عن حملها على إرادتك .

ركاس ما دام الوقت منفسحاً فالمرء لا يألونّ جهداً ،
ولا يكفنّ عن ترداد الكلمة الطيبة .

إيفيچنيا عبثاً تجهد نفسك ، وتثير فى نفسى الآلام .
فخلٍّ عنك !

أركاس الآلام هى التى أستصرخها فيك ؛
فهى الصديقة الناصحة بالخير .

إيفيچنيا إنك تأخذ نفسى قسراً ، ولا تستأصل نفورها .

أركاس أتأبى النفس الطيبة إحسانا يسديه نبيل ؟

إيفيچنيا أجل متى أرادنى النبيل لنفسه ولم يرد شكرى ؛
وهذا غير جميل .

أركاس من لا يحس ميلا لا يعدم كلمة اعتذار .
سأنبئ الملك بما جرى هنا ،
فليتك تستذكرين مسلكه النبيل نحوك ،
من يوم قدمت إلى يومنا هذا .

المنظر الثالث

إيفيچنيا (وحدها)

أشعر بقلبى يثب من كلام هذا الرجل ،
ويشب دفعة واحدة فى غير الوقت الملائم .
إنى مرعبة ! فقد كان تيار من الغبطة يغمر نفسى ،
كما يغمر المد الصخر القائم فى الرمل على ساحل البحر

بتياراته الزاخرة الفياضة المتعاقبة .
كنت أتعلق بالمحال ، إذ لاح لى أن سحابة تعود ،
فتكتنفنى فى رفق ، وترتفع بى عن الأرض ،
وتهزنى لتبعث إلى جفونى بذلك النعاس ،
الذى سلطته الإلهة الطيبة على سالفى ،
وقد احتضنتنى تبتغى إنقاذى .
لقد تعلق القلب أخى فى قوة خارقة ،
وأصغيت إلى نصح صديقه ، ولا مطمع لى سوى إنقاذهما .
وكما يولى الملاح ظهره صخور الجزيرة المقفرة راضياً ،
وليت ظهرى طوريس .
فالآن يوقظنى صوت الرجل الوفى يذكرنى ،
بأنى أترك هنا أيضاً بشراً .
ألا بعداً للخداع ! فإنى أبغضه الآن بغضاً مزدوجا .
هدوءاً أيتها النفس ! أبدأت تترددين وتشكّين ؟
لابد من مبارحة الأرض اليابسة التى شهدت وحدتك ،
فإذا ركبت البحر تولتك الأمواج ، ومالت بك كل مميل ،
وأنكرتِ الدنيا فى كدر وخوف ، وأنكرت بينهما نفسك !

المنظر الرابع

إيفيچنيا . بيلادس

بيلادس — أين هى لأعجل إليها بنبأ نجاتنا السار .
إيفيچنيا — ها أنذا مهمومة النفس أترقب ما وعدتنى من عزاء أكيد .
بيلادس — لقد شفى أخوك ! وقد جسنا الأرض الصخرية ،

أرض الساحل المشئوم ،
وسرنا على رمله نتجاذب أطراف الحديث الشهى ،
واستدبرنا الغابة غير شاعرين .
وكانت شعلة الشباب الجميل يزداد اندلاعها روعة ،
من حول رأسه المخصل ، فتزيده تهللا على تهلله .
وكانت عينه اليقظة تتقد شجاعة وتشع رجاء ،
وقلبه الطليق يفيض بالفرح ،
وتستفزه الرغبة فى إنقاذك — أنت منقذته — وفى إنقاذى .

إيفيجنيا فلتباركك الآلهة ، ولتصن شفتك التى تلفظ هذا الخير ،
فلا تعرف الأنين ولا مرارة الشكوى .

بيلادس إنى أحمل إليك ما هو أكثر من هذا .
فالهناء اعتاد أن يحل فى حاشية كما يفعل الأمير .
لقد وجدنا الرفاق أيضاً فى السفينة المختبئة فى جون صخرى
قابعين ، محزونين ، مترقبين .
وقد رأوا أخاك فهبوا مهللين ،
وتوسلوا إلينا أن نعجل بساعة الرحيل .
فكل قبضة من قبضاتهم تحن إلى المجذاف ،
والريح تهب من البر هامسة ،
وتؤرجح السفينة لناظرهم أجمعين .
فالبدار البدار إلى المعبد !
ودعينى أدخل قدسه ، وأحقق الغرض الذى نصبو إليه مكبراً .
وأنا وحدى كفء لنقل تمثال الإلهة فوق كتفين متدربتين ،
فإن حنينى إلى العبء المرجو لشديد .

(يسير صوب المعبد وهو يلفظ الكلمات الأخيرة دون أن يفطن إلى أن إيفيجنيا لا تتبعه ثم يلتفت أخيراً وراءه) :

ما بالك واقفة تترددين ؟ ما خطبك ؟ — لِمَ لا تتكلمين ؟
أمبلبلة الأفكار أنت ؟ أيعتاق هناءنا شر جديد ؟ خبريني ؟
أبعثت إلى الملك بالكلمة الأريبة التي اتفقنا عليها ؟

إيفيچنيا لقد فعلت أيها الرجل العزيز — لكنك ستلوم .
وإن مرآك لينطق بالملام .
لقد حضر رسول الملك فألقيت إليه الكلمة كما لقنتنيها .
فبدا عليه العجب ، وأصر لينبئن الملك أولا بهذا الطقس النادر
ليعرف فيه مشيئته
وها أنذا أترقب عودته .

بيلادس الويل لنا ! قد عاد الخطر يحوم حولنا .
لِمَ لَمْ تستترى فى حكمة وراء حق الكاهنة ؟

إيفيچنيا لم أتذرع يوماً بهذا الحق .

بيلادس إذن ستلحقين بنفسك و بنا الدمار أيتها الطاهرة ،
فكيف لم أفطن إلى هذا الأمر من قبل ،
فكنت أرشدك إلى الروغان من ذلك الطلب .

إيفيچنيا أنا الملومة وحدى ، والذنب ذنبى ، وأنا به جد شاعرة ،
لكنى لم أك حقيقة بأن ألقى الرجل بغير ما لقيت ،
وقد طلب ما طلب عن حق ورشد .
فسلم له قلبى بحق ما طلب .

بيلادس أرى الأمر يتفاقم فلا تكلينا إلى اليأس ولو على هذه الحال ،
فيفضحنا التسرع والطيش .
انتظرى عودة الرسول هادئة .
فإذا حضر فالثبات مهما يكن من أمر .
فالقيام بالطقس من شأن الكاهنة ،
وليس للملك به من شأن .

فإذا طالب بالغريب الذى ينتابه الجنون فأرفضى أن يراه .
وحجتك أننا فى المعبد رهينا حفظك ،
فتتيحى لنا الفرصة للهرب بأسرع ما يستطاع .
ونذهب بالكنز المقدس عن هذا الشعب الخشن الزرى .
لقد أمدنا أبوللون بخير الأمارات ،
فقبل أن نحقق شرطه فى ورع وخشوع ،
أنجز هو وعده بمنه الإلهى .
إن أوريست حر معافى .
فاحملينا أيتها الرياح الطيعة إلى الجانب الآخر ،
ومعنا الطليق ؛ إلى الجزيرة الصخرية التى يسكنها الإله ،
ثم إلى ميسن لتشيع فيها الحياة .
ولينبعث من رماد موقدها المنطفئ آباؤنا الآلهة جذلين ،
وتضئ النار الجميلة منازلهم أجمعين .
إن يدك ينبغى أن تكون أول ما يحرق لهم البخور فى صحاف من ذهب .
فأنت تردين البركة إلى تلك العتبة ، وتبثين فيها الحياة .
وأنت تبعدين عنها اللعنة ،
وتجملين ذويك من جديد بحلية فاخرة ، من أزاهير الحياة اليانعة .

إيفيجينيا حين أسمع كلماتك أيها العزيز تستروح روحى من أشعتها الدفء
وتتجه إليها كما تتجه الزهرة إلى أشعة الشمس ،
ففيها العزاء الجميل .
ألا ما أعذب اليقين يجرى على لسان الصديق الحاضر ،
أما الوحيد فإنه تعوزه قوة اليقين السماوية ،
فيخور ويهن فى طىّ السكون .
ذلك بأن ما احتبس فى صدره من رأى وعزم ، ينضج فى بطء ،
لكن حضرة المحب تستعجل فى صدره هذا النضوج .

بيلادس أستودعك الآلهة !
فإنى ذاهب لأهدئ روع الرفاق ؛
فإنهم هنالك يتقلبون على جمر الانتظار .
سأعجل بالعودة كما أعجل بالذهاب ،
وأترقب إشارتك هنا من مخبئى بين الصخور —
ماذا دهاك ! إن جبينك الطلق يُظلله بغتة شجن هادئ !

إيفيچنيا معذرة ! إن هماً رفيقاً واضطرابا خفيفاً يعبران بنفسى ،
كما يعبر بالشمس رقيق الغمام .

بيلادس إياك أن تُراعى ، فالخوف والخطر حليفان على الخديعة ،
و إنهما لمتزاملان .

إيفيچنيا إن الهم الذى يحذرنى من خديعة الملك و ينهانى عن سرقته ،
لكريم عندى ، وقد بات لى أبا بعد فَقْد أبى .

بيلادس إن الذى يريد ذبح أخيك هو الذى تفرين منه .

إيفيچنيا هو نفسه الذى أولانى المعروف .

بيلادس ما تقضى به الضرورة لايسمى جحوداً .

إيفيچنيا إنه لجحود ؛ لكن الضرورة تعذر منه .

بيلادس تعذرك أمام الآلهة والناس بلا مراء .

إيفيچنيا لكن قلبى وحده لايستشعر الرضى .

بيلادس إن القسوة على النفس كبرياء مستترة .

إيفيچنيا إنى لا أحقق بل أشعر فحسب .

بيلادس شعورك بأنك محقة تمجيد للنفس .

إيفيچنيا إلّا شعور القلب ، فهو خلو من الشوائب .

بيلادس بذا صنتِ نفسك فى جو المعبد ؛
أما الحياة فتعلمنا التسامح مع أنفسنا ومع الغير .
وسوف تروضين النفس على ذلك أيضاً .

إن هذا الجنس عجيب التكوين ،
كثير التوشج ، كثير التعقيد .
فالفرد ليعجز أن يحتفظ فى نفسه أو مع غيره بنقاوته ،
فلا يكدر صفاءه أى اضطراب .
وليس علينا أن نقيم أنفسنا على أنفسنا قضاةً .
والسير والالتفات إلى موطئ القدم ،
واجبنا الأول والذى يليه .
ذلك أن المرء يندر أن يقدِر ما فعل حق قدره ،
أما ما يفعل فيكاد ألّا يعرف أن يقدِره .

إيفيچنيا كدت تحولنى عن رأيى إلى رأيك .

بيلادس أبنا حاجة إلى الإقناع ؟ إنه ليس لنا خيار .
إن إنقاذك أخاك ونفسك وصديقاً ،
هو الطريق الوحيد الذى ليس طريق سواه .
أفنتساءل هل نسلكه ؟

إيفيچنيا لو تركتنى أتردد ! فما أحسبك تسئ إلى رجل هادئا ،
وقد تعهدت له بالإحسان .

بيلادس إذا هلكنا انتظرك أقسى من هذا الملام .
إنى أرى أنكِ لم تعتدى خساراً ،
لأنك لا ترومين التضحية بكلمة باطلة ،
لنتفادى بها من شر عظيم .

إيفيچنيا ليت قلبى كقلوب الرجال ،
فإذا حزمت أمراً ، لم يصغ لصوت غير صوت هذا الأمر .

بيلادس إنك تتأبين من دون مبرر .
وللضرورة يد قاسية تأمرك ، وإشارتها الجدية فوق كل قانون ،
ولها تخضع الآلهة أنفسها .

إن أخت القدر الأبدى ، التى لا تستشير ،
تسود فى صمت ، فأحملى ما تفرضه ،
وافعلى ما تأمرك .
وما عدا ذلك فعلمه عندك ، وسأعود وشيكا ،
لأتلقى من يدك المقدسة خاتم النجاة الجميل .

المنظر الخامس

إيفيجينيا (وحدها)

لابد لى أن أتبعه فإنى أرى ذوىّ فى خطر داهم .
ولكن آه ! فمصيرى يقلقنى و يضاعف قلقى .
وقد كان الرجاء الهادئ علالتى فى وحدتى ،
فهل أدعه فلا أحققه ؟
أقدر للّعنة البقاء إلى الأبد ؟
وألّا ينهض جنسى ببركة جديدة ؟
إن كل شىء يتضاءل حقاً ،
والهناء الأعظم ، أجمل قوة فى الحياة ، ينهار أخيراً .
فما بال اللعنة لا تنهار ؟
أكان رجائى إذن عبثاً ،
حين استبقيت هنا ، وجُنِّبت مصير ذوىّ ؟
وحين أملت أن أطهر بيدى النقية وقلبى الطاهر منزلا دنساً .
ما كاد أخ لى يسترد العافية بين ذراعى من شر مستطير ،
و يثوب إلى نفسه مثابا سريعاً عجيباً ؛
ما كادت السفينة التى طال إليها اشتياقى تقترب ،

لتقلنى إلى مرفأ آبائى ،
حتى فرضت علىّ الضرورة الصماء بيدها القاسية رذيلة مزدوجة :
سرقة الصورة التى أوتمنت عليها وكانت موضع تبجيل كثير ،
وخديعة الرجل الذى أدين له بالحياة والمصير .
ليت صدرى لاينجم فيه آخر الأمر حقد ،
ولاينشب من كراهية التيتان — الآلهة القدام —
لكم أيها الأولمبيون أظفار العقبان فى الصدر الحنون .
أنقذينى أيتها الإلهة وأنقذى ، بإنقاذى ، صورتك .
إن الأغنية القديمة ترن فى أذنى —
وقد كنت نسيتها ، ونسيتها من قلبى —
أغنية الأقدار التى تغنت بها مرعبةً ،
يوم هوى طانتالوس عن كرسيه الذهبى .
لقد تألمت لألم الصديق النبيل ،
وكان صدرها محنقاً ، وغناؤها مفزعا ،
وقد غنتنى إياها فى الصبا مرضعى ،
وغنتها إخوتى معى فوعيتها جيداً :

يخشى الآلهة نوعُ الإنسان
تمسك فى يدها بعصا السلطان
إن شاءت سادت سود الديان

تُخشى أضعافا إن رفعت قدراً
يعلو مجلسها سحباً أو صخراً
حول الأخونة زاهية صفراً

إن دب خلاف سقط الزوار
يتبعهم خزى يلحقهم عار

فى بهمة ليـــل حيث الأغـــوار
عبثـــاً تنتظر أن يقضى قرار
قيـــد الظلمات تهفـــو الأنظار

أما الآلهـــة فى عيد أبدى
من حول الخون ذى اللون الذهبى
ترحل عن جبل وتحـــل بجبل

ترتفع إليهـــا من جوف الوهد
أنفاس تيتان خنقت من جهد
كغيوم ضحايا فاحت من جسد

قد حرم السادة كل الأجيال
من فيض رضاها وســـعيد مآل
تتحاشى حفيداً لمشابه فيـــه
ناطقـــة أبداً بملامح جـــده
كانت تؤثره فغدت تنفيـه

***

ذا شـــدو القدر يسمعه المنـــفى
يصغى الشيخ له فى حلك الليل
يتذكر ولداً ويحن لحفده
ويهـــز الرأس من فرط الشجو

الفصل الخامس

المنظر الأول

طواس . أركاس

أركاس — أشهد أنى حائر لا أدرى أية وجهة أولى ارتيابى .
أإلى الأسيرين الذين يدبران الهرب خفية ،
أم إلى الكاهنة التى تبذل لهما العون .
إن الأشاعة تستفيض بأن السفينة التى أتت بهما ،
ما تزال مختبئة فى جون .
وهذا الخبال الذى أصاب الرجل ،
وهذا الطقس والإجراء المقدس الذى يقتضى الإبطاء ،
كلاهما يثير الشبهة عالية ويدعو إلى الحذر .

طواس — علىّ بالكاهنة على عجل !
ثم اذهب وفتش الساحل تفتيشاً دقيقاً سريعا ،
من الآكام إلى حرج الإلهة ،
وصونوا قلبه المقدس ؛
أكمنوا للمريبين وهاجموهم ،
وأينما وجدتموهم فاقتنصوهم كعادتكم .

المنظر الثانى

طواس وحده

إن الحنق يتحول فى صدرى تحولا مرعبا ،
فتارة إلى التى حسبتها مقدسة إلى هذا الحد ،

وتارة على نفسى التى حملتها على الخيانة بالأعضاء والطيبة .
إن المرء ليألف العبودية جيدا ، ويتعلم الطاعة سريعا ،
إذا استلبت حريته تماما .
أجل لو أنها وقعت فى قبضة أجدادى الخشنة ،
وأبقت عليها الآلهة الحانقة ،
لا غتبطت بأن تنجو بجلدها ،
ولاستسلمت للأقدار شاكره ،
ولسفكت على المذبح دم الغريب ،
وعدت واجبا ما يكون ضرورة .
أما الآن فتشجع طيبتى رغبة جريئة لها على الظهور ،
ويذهب رجائى فى ارتباطها بى سدى .
فهى تفكر فى مصيرها وحده .
لقد كسبت قلبى بالملق ،
وإذ أقاوم الآن ملقها تلتمس طريق المكر والخداع .
أما طيبتى فتبدو لها شيئا هو ملكها من عهد بعيد .

المنظر الثالث

إيفيجنيا . طواس

إيفيجنيا أتطلبنى ؟ فما جاء بك إلينا ؟
طواس إنك تسوفين فى القربان فاذكرى لماذا ؟
إيفيجنيا بسطت لأركاس كل شىء جليا .
طواس أحب أن أسمعه منك كرة أخرى .
إيفيجنيا الآلهة تمهلك ففكر !

طواس مهلة تلوح مؤاتية لك .

إيفيجنيا ما كان أغناك عن الحضور ،
إن كنت مصمما على القسوة .
فالملك الذى يطلب النكر يجد الغناء فى الخدم ،
يتهافتون منه على الجريمة ،
ويبوءون عنه بنصف اللعنة ،
لقاء شىء من الرضى والأجر ؛
ويبقى الملك طاهر الذيل .
إنه يستتر بالسحاب الصفيق ،
يدبر فى مطويةٍ الموت ،
وينفذ رسله إلى المسكين ،
يصبون على رأسه جام الهلاك .
ويُحلّق هو فى عليائه ناعما ،
يتخطى العاصفة بعيد المنال .

طواس أغنية ثائرة تتفصد بها شفة مقدسة .

إيفيجنيا لست بالكاهنة بل ابنة أجا ممنون ؛
لقد كنت تبجل كلمة المجهولة ،
أسرعان ما تريد أن تأمر الأميرة ؟ كلا !
لقد شببت من الصغر على الأخذ بالطاعة ،
طاعة والدين ، ثم طاعة إلهة .
وكنت فى طاعتى أستشعر الحرية أجمل ما تكون ؛
أما الرضوخ لقالة جافة يلفظها رجل ،
فما لم أتعلمه هنا أو هناك .

طواس لست أنا الآمر بل قانون قديم .

إيفيجنيا نحرص الحرص كله على القانون ،
لِما كان يسلح أهواءنا .
وآخر أقدم منه يهيب بى أن أقاومك ،
ذاك هو الوصية التى ترعى الغريب .

طواس يلوح الأسيران عزيزين عليك .
فقد أنساك العطف والمرثية أول وصايا الحكمة :
ألّا تثيرى صاحب السلطان .

إيفيجنيا سواء تكلمتُ أو لذتُ بالصمت ،
فأنت فى الحالين تعرف مكنونى ،
وما سوف يكنه قلبى على الدوام .
ألا يفتح القلب المستغلق ويستدر العطف ،
تذكر المصير المماثل ؟ فكيف بقلبى !
فيهما أرى نفسى .
فقديماً أجفلت أمام المذبح ،
وأحدقت بى المنون قبل الأوان ،
وأحاط بالجاثية الموت الرهيب .
لقد اختلجت السكين تبغى صدرى ،
وكان إذ ذاك عامراً بالحياة .
فرُوِّع قلبى ، وانتفضت من أعماق ،
وزاغ بصرى — ثم إذا بى فى أمان .
أفليس فى أعناقنا نحن التعساء ،
دين للآلهة يقتضينا الأداء ؟
وأنت تعلمه ، وتعرفنى ، وتريد أن ترغمنى .

طواس إذعنى لوظيفتك لا للسيد .

إيفيجنيا دعك من هذا ! ولا تحلّن القوة التى تتشفى بضعف امرأة !

لقد ولدت حرة كما يولد الرجل .
ولو قد وقف ابن أجاممنون حيالك وجهاً لوجه ،
وطلبت منه ما لاينبغى ،
لأراك حساما ، وأبدى ذراعا ،
يمنعان حقوقه أن تستباح .
أما أنا فلا أملك غير اللسان .
وجميل بالكريم أن يصغى للنساء .

طواس إنى أكترث لكلامهن أكثر من اكتراثى لحسام الأخ .

إيفيچنيا إن حظ السلاح دوما سجال ،
والمحارب العاقل لايستهين بعدو .
والطبيعة لم تحرم الضعيف ما يدفع به القسر ويرد القسوة ،
حببت إليه المكر وعلمته الفنون ،
فتاوة يروغ ، وأخرى يدرء ، وآنا يداور ؛
والقوى يستحق أن تجرب معه كل هاته الأمور .

طواس فى الحذر كفاية لملاقاة الخداع .

إيفيچنيا والنفس الطاهرة ليست بحاجة إليه .

طواس لا تلزمى نفسك الحجة من غير انتباه .

إيفيچنيا لو أنك ترى كيف تجاهد النفس مصيراً سيئاً يحاول انتيابها ،
وكيف تقدم على دفعه وهو مداهم !
فهل أقف هنا حيالك عزلاء ؟
الرجاء الجميل فى يد المرأة غصن جذّاب ،
أقطع من سيف وأمضى من سلاح ،
أتراك ترده ؟
فماذا يبقى إذن لى لأحمى به ما يكن الفؤاد ؟
أأناشد الإلهة أن تبدى معجزة ؟

أنضب معين النفس من كل قُدرة ؟

طواس إن مصير الغريبين فيما يلوح
يهمك هما شديداً . فمن يكونان ؟

إيفيچنيا هما — إنهما يلوحان — أظنهما من اليونان .

طواس أمواطنان هما ، فتجددت فى نفسك صورة الرجعة الجميلة ؟

إيفيچنيا (بعد صمت قليل) أليس لغير الرجل الحق فى العمل الجليل ،
أليس يجيش المحال إلا بصدر البطل المغوار ؟
ما هو العظيم فى عرف الناس ؟
ماذا يهز النفس ويجذبها إلى الراوى المبدئ المعيد ؟
أليس ما بدأه الشجاع المقدام من غير ما أمل فى التوفيق ؟
ومن يغير وحده بالليل على جيش العدو ،
فيفجأ النوّم والأيقاظ ، ويدهمهم كالنار المحتدمة الأوار ،
ثم يعود وقد تنبه عدوه آخر الأمر ،
ممتطياً ظهر ما اختطف من جياد ،
مثقلا مع ذلك بالأسلاب ، ألا يحمد سواه ؟
ألا يستحق الإطراء إلا الذى يزدرى الطريق الأمين ،
فيذهب يجوس الجبل والغاب غير هياب ؛
ليطهر بقعة من قطاع الطريق ؟
ألم يبق لنا شىء ؟
أقدر المرأة الرقيقة أن تنكر حقها الطبعى ،
فتستوحش مع المستوحشين ؛
وتسلبكم كالأمازونة [1] حق السيف ؛

(١) الأمازون جيل خرافى من النساء عند اليونانيين القدماء عشن بلا رجال وألفن دولة حربية فى منطقة طرابزون كن يغزن بها آسيا الصغرى . وكل عام يختلين مرة بجيرتهم من الرجال حفظا للنوع فمن ولد لهن أرسلنه إلى أبيه أو قتلنه . أما البنات فكن يربينهن على غرارهن . والكلمة تطلق الآن على المسترجلات المستبسلات من النساء .

وتنتقم بالدم للاضطهاد ؟
إن أمراً جريئاً يجيش بصدرى ،
فإذا أخفقت فلن أنجو من لوم عظيم أو شر جسيم .
فإليك الخبر !
فإن كنت من يؤثرون الحق كما يؤثر عنك ،
فأقم الدليل بتقديم المعونة ،
ومجّد فىّ جلال الحقيقة —
أعلم إذن أيها الملك أن خداعا يحاك بليل ؛
عبثاً تسأل عن الأسيرين .
لقد رحلا للّحاق بالرفاق ،
فى سفينة راسية على الساحل .
وأكبرهما الذى انتابه هنا الشر ،
ثم حل عنه الساعة هو أخى أوريست .
أما الآخر فموضع ثقته ، ورفيق صباه ، ويدعى بيلادس .
لقد أنفذهما أبوللون الدلفىّ بمهمة ربانية إلى هذا الساحل ،
وأمرهما باختطاف تمثال ديانا ، وأن يحملا إليه الأخت .
ووعد طريد الجن وقاتل الأم ،
أن يحبوه لقاء ذلك بنعمة الخلاص .
فكلانا فى يدك بقية باقية من بيت طانتال ،
فأنزل بنا ، إن جاز ، الدمار .

طواس — أتحسبين السيتى الخشن المتوحش ،
يصغى إلى صوت الحق والإنسانية ،
ولمّا يستمع له اليونانى أتريوس ؟

إيفيجنيا — يستمع له كل مولود تحت قبة السماء ،
يتفجر فى صدره ينبوع الحياة ،

صامتاً متدفقا —
أيها الملك ! ماذا يضمر لى صمتك فى نفسك الغويرة ؟
أهو الدمار ؟ إذن فاقتلنى أولا وقد عزّت النجاة ،
فأخبرُ الخطر البغيض الذى عرضت له أحبائى عامدة متسرعة .
الويل لى ، أن أراهما موثقين أمامى ،
فبأية نظرة أودع أخى وأنا أقتله بيدى ؟
ما أحسبنى قادرة على أن تلتقى عيناى ،
بعينيه الحبيبتين بعد الآن .

طواس هكذا نصب الخاتلان هذا الشرك ،
للتى طال عليها الاحتباس ،
فسرعان ما صدقت وطابت نفساً بأمانيهما .

إيفيجنيا لا ! لا ! أيها الملك !
قد أخدع فهذا أمر يجوز ،
أما هذان الرجلان فمخلصان صادقان .
فإذا وجدتهما على خلاف ما ذكرت ، فاقتلهما .
واطردنى وأقصنى جزاء خرقى ،
إلى صخرة على ساحل رهيب .
أما إن كان الرجل أخى ،
وكان على العكس من طالما نشدته وأُشربت حبه ،
فأطلق سراحنا ، وكن بالأخوة كما كنت بالأخت كريماً حفيا .
لقد قضى أبى بيد امرأته ،
وقضت هى بيد ابنها .
وآخر رجاء لبيت أتريوس ،
معقود بهذا الابن وحده .
فدعنى أتجه إلى هذا البيت أمحو خطاياه ،

بقلب طاهر ويد نقية .
أنجزْ وعدك فقد أقسمت أن تخلى سبيلى ،
إذا قدر لى الرجعة إلى ذوىّ .
وها هى ذى بادية أيها الملك .
والملك حاشاه أن يشبه السوقة ،
فيخرج عن الحيرة بالموافقة ،
ليتخلص لحظة من صاحب الرجاء ؛
أو يعدُ بأمر يستبعد وقوعه .
إنه ليستشعر هيبته السامية ،
إذا ما استطاع إسعاد المؤمل .

طواس إن الغضب فى صدرى يغالب كلامك ،
كما تدافع النار الماء ؛
تحاول أن تقضى بفشيشها عليه .

إيفيجنيا دع الرضى يغمرنى كالضوء المقدس ،
يرسله فى رفق لهيبُ القربان .
وليكن رضاك مكللا بالحمد والشكر مقترنا بالهناء .

طواس كم هدأ هذا الصوت من ثائرى !

إيفيجنيا لو تناولنى يدك امارة السلام !

طواس تطلبين الكثير فى الوقت اليسير .

إيفيجنيا من يفعل الخير لايحتج إلى تفكير .

طواس هذا جد كثير . فالخير يتبعه الشر أيضاً .

إيفيجنيا إنه الشك الذى يقلب الخير شراً ، فلا تسترب !
وامنح حيثما أحسست الدافع إلى المنح .

المنظر الرابع

السابقان . أوريست مسلحا

أوريست (يعود إلى المنظر) شددوا عزائمكم ، وصدوهم فما هى إلا لحظات .
لا ترتدوا أمام الدهماء ،
واحموا الطريق لى ولأختى إلى السفينة .
(يخاطب إيفيچنيا من دون أن يلحظ الملك) تعالى !
لقد انكشف أمرنا ، والمهرب عزيز . عجلى !
(يرى الملك)

طواس (يسل سيفه) لا يشهر فى حضرتى سيف بلا عقاب .

إيفيچنيا لا تدنسا حرم الإلهة بالغضب وسفك الدماء .
ألزما رجالكما السكينة ، واستمعا للكاهنة الأخت .

أوريست من ذا الذى يهددنا ، خبرينى !

إيفيچنيا احترم فى شخصه الملك الذى بات لى أبا من بعد أبى ،
وسامحنى أخى .
إن قلبى الساذج قد علق مصيرنا كله بيده ،
فاعترفت له بأمركما ، وخلصت من الخيانة نفسى .

أوريست أيريد لنا عودة فى أمان ؟

إيفيچنيا حسامك الملتمع يحول دون الجواب ،

أوريست (يغمد سيفه) تكلمى إذن ! فإنى كما ترين مستمع إليك !

المنظر الخامس

السابقون . بيلادس و بعده بقليل أركاس ، كلاهما مجرد سيفه

بيلادس لا تتوانيا ! فإن رجالنا يستجمعون الجهد الأخير ،

ويرتدون متفادين إلى البحر رويدا .
أى حديث بين الأمراء أُلفى هنا ؟
هذا هو رأس الملك المبجل .

أركاس تقف حيال أعدائك هادئا أيها الملك ،
كما هو خليق بك .
لقد عوقبت الجرأة فى الحال ،
فارتد أصحابها ووقعوا ، ووقعت سفينتهم فى قبضة يدنا .
كلمة منك تصبح السفينة طعمة للنيران .

طواس إذهب فمن شعبى أن يلتزم الهدوء !
ولا تمسوا العدو بشر ما دمنا نتحدث (يذهب أركاس)

أوريست إنى أقبل . إذهب أيها الصديق الصدوق فاجمع بقية الرجال .
وانظروا هادئين ما تُعِد الآلهة لفعالنا من ختام .

(يخرج بيلادس)

المنظر السادس

إيفيجنيا . طواس . أوريست

إيفيجنيا روِّحا عنى قبل الشروع فى الحديث ،
فإنى لأخشى النزاع الوخيم ،
إذا أنت أيها الملك لم تصغ إلى صوت الإنصاف الرحيم ،
ولم تكفكف أيها الأخ من غرب الشباب .

طواس إنى كظيم ، كما هو بالأكبر خليق ، فأجبنى !
ما برهانك على أنك ابن أجا ممنون وأخو هذه ؟

أوريست هو ذا السيف الذى جالد به رجال طروادة المغاوير ،

قد انتزعته من قاتله ،
ورجوت الآلهة أن تهبنى شجاعة الملك العظيم وساعده ؛
وأن تؤتينى حظه ؛
وأن تتيح له ميتة أروع من ميتته .
فاختر من بين نبلاء جيشك أنبلهم وأدعه إلى منازلتى ،
وما دام على الأرض متسع لأبناء الأبطال ،
فلا يُمنع الغريب هذا الرجاء .

طواس — تأبى العادة القديمة هذا الإكرام على الغريب .

أوريست — فلتبدأ الجديدة إذن على يديك ويدىّ ؛
فالشعب بأسره يقتدى بسيده ؛
ويتخذ القانون من صنعه النبيل .
لا تدعنى أنافح عن حريتنا وحدها ،
بل دعنى أدفع أنا الغريب عن الغرباء أجمعين .
فإما سقطت فصدر عليهم وعلىّ الحكم ،
وإما أسعفنى الحظ وغلبت ،
فيبيت هذا الساحل محبا لمن يطأه مسعفا ،
يشيّع كل راحل مجبور القلب .

طواس — إنك أيها الشاب فيما يلوح ، خليق بأجدادك الذين تفاخر بهم .
إن فى حاشيتى رهطا من النبلاء الشجعان ،
لكنى فى سنى ما زلت أحسن منازلة الأعداء .
فها أنذا مستعد للنزال .

إيفيجنيا — محال ! فالأمر أيها الملك لا يتطلب هذا البرهان الدموى .
دعا السيف وارفعا عنه اليدين !
فكرًّا فىّ وفيما يصيبنى .

فالقتال السريع يسند رجلا واحدا ،
فإن سقط على الفور أشادت به الأغانى .
أما الدموع التى تذرفها المرأة من دون انقطاع ،
وقد خلفها الراحل وحيدة ،
فقل أن تدخل فى حساب الأجيال القابلة ؛
وقل أن يمجد الشاعر أياما وليالى تخللتها الدموع ،
وقضتها النفس الحزينة ،
تتلهف سدى على رجعة الحبيب الفقيد ،
وتضنى من لوعة المفارق العجول .
لقد همس بى الساعة هاجس بأن خداع اللص ،
لا ينتزعنى من ملاذى الأمين ولا يسلمنى إلى الرق .
فلم أتوان عن تبينه ، وتحرى الظروف ، وطلب الأمارة .
والآن يطمئن قلبى .
أنظر إلى يده اليمنى تجد علامة مثل نجوم ثلاثة ،
قد ظهرت عليها من يوم ميلاده .
وقد تنبأ له الكاهن بأن رهن هذه اليد فعلا جسيما .
وهذه الندبة التى تشق حاجبه تعزز اقتناعى ؛
فقد أفلتته إلكتره وهو بعد طفل ، بطيشها وخفتها ،
فهوى من بين ذراعيها واصطدم بكرسى .
إنه أوريست . أفأذكر لك شبهه بأبيه ؟
أم استشهد بهتاف القلب لأؤكد البرهان ؟

طواس لا يزال على السيف أن يحكم بيننا ،
ولو بدد قولك الشكوك جميعاً وهدأ ثائرى .
لا أمل فى سلام ؛ فقد جاء باعترافك
ليسلبانى تمثال الإلهة المقدس .

فهل تحسبوننى لا أكترث لهذا ؟
لقد طالما رنا اليونانى إلى كنوز الهمج البعيدة ،
واشتهى الفراء الذهبية والخيول والبنات الحسان .
لكن العنف والمكر يخذلانه أحيانا ،
فى العودة إلى الأوطان بالغنيمة سالما .

أوريست ما كان للتمثال أن يكون بيننا مثار خلاف أيها الملك .
فالآن ندرك الخطأ الذى أعمانا عنه إله ،
حين ساقنا إلى هنا .
لقد سألت الرب الخلاص من نوبة الجن فقال :
إئتِ إلى اليونان بالأخت المقيمة على ساحل طوريس ،
بالمعبد المقدس على غير مشيئتها ، تحل عنك اللعنة .
فخيل إلينا أن أختا أبو للون هى المعنية ،
والرب إنما كان يفكر فيك .
وقد فصمت الآن الروابط المحكمة ،
وعدت إلى ذويك أيتها المقدسة .
مسستنى فشفيت ، وفى ذراعيك
أنشب الشر مخالبه للمرة الأخيرة ،
وهزنى برعبه هزا ، وانساب إلى جحره يسعى كالأفعى .
الآن أعود فأنعم بضوء النهار الفياض ،
الآن أتبين مشورة الآلهة جميلة جليلة .
لقد اختطفتك حامية للبيت ،
كما يختطف التمثال المقدس ، قد علق به مصير مدينة
برباط من كلمة إلهية
تخفى على الأذهان .
لقد حفظتك الإلهة فى هدوئها القدسى لخير أخيك وذويك .

و إذ يبدو الأمل فى النجاة ضائعا فوق هذه الأرض الواسعة ،
إذا بك تردين إلينا كل شىء .
فلتجنح إلى السلم أيها الملك ،
ولا تمنع الأخت أن تبارك بيت الآباء ،
وأن تردنى إلى البهو الذى كفر عنى السيئات ،
وأن تضع على رأسى التاج التليد .
إجزها عن البركة التى جلبت إليك ،
ودعنى أستمتع بأقرب الحقوق .
إن العنف والمكر وهما أعظم مفاخر الرجال ،
ليستشعران الخجل من حقيقة هذه النفس الرفيعة ؛
وقد جوزيت الثقة الخالصة البريئة بالرجل النبيل خير الجزاء .

إيفيجنيا فكِّر فى وعدك ، ولْيلِن قلبك هذا الكلام
من فم مخلص لا يعرف المواربة ،
أنظر إلينا ، فالفرصة لمثل هذا العمل النبيل لا تعرض كثيرا ،
ولن يسعك فواتها فبادر إلى انتهازها .

طواس إذن فانصرفا !

إيفيجنيا ليس هكذا يا مليكى !
لن أفارقك دون مباركة وعلى مضض .
لا تنفنا من حضرتك ، فلنا حق فى كرم الضيافه .
وما افتراقنا إلى أبد ، ولا ارتحالنا إلى غير رجعه .
وأنت عندى كما كان أبى عزيز حبيب ؛
ولن يزال هذا أثرك فى نفسى أبدا .
فإذا طرق سمعى من أحقر الناس فى شعبكم ،
لهجة الصوت الذى ألفت سماعه منكم ؛
و إذا رأيت أرق الناس حالا ، يرتدى لباساً من ألبستكم ؛

فسأحتفى به وكأنه إله .

وسأمهد له بنفسى فراشا يؤويه ،

وأقدم له إلى جانب النار مقعدا يستدفئ عليه .

ولا أسأله إلا عنك وعن أحوالك .

فلتجزك الآلهة عن فعالك وعن رحمتك خير الجزاء .

وداعا ! لو أنك التفتَّ إلينا وقلت قولا كريما ترد به الوداع !

إذن لترفقت الريح وأفعمت الشراع ،

وتمهلت الدموع من أعين المفارقين .

وداعا ! وناولنى يمناك توكيداً للود القديم .

طواس وداعا !

انتهت

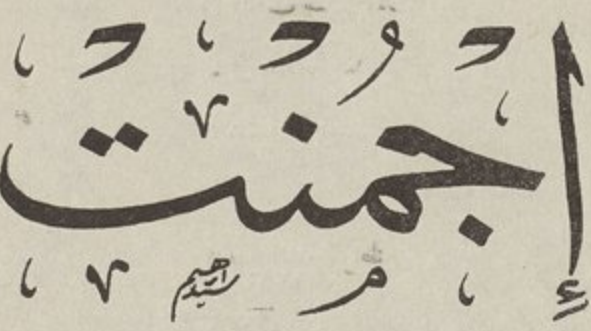

أشخاص الرواية

مرغريت دى بارما : ابنة شارل الخامس والوصيّة على الأراضى الواطئة .

الكونت إِجمنت : برنس دى جور .

غليوم دى أورانيان

الدوق ألبا

فرديناند : ابنه غير الشرعى .

مكياڤيل : فى خدمة الوصيّة .

ريشار : كاتب سر إجمنت .

سلڤا وكومتس : فى خدمة ألبا .

كلارا : عشيقة إِجمنت .

أمها

براكنبورغ : من أبناء المواطنين .

سوست : بدّال

يتر : خياط

تسمرمان

سيفنسيدر

من أهالى بروكسل

بويك : من جنود إجمنت .

رويزم : عاجز وأصم .

ڤانسن : كاتب .

شعب ، حاشية ، حرس . الخ .

الفصل الأول

رماية عن القوس

جنود وأهالى يحملون الأقواس والنبال

بِتَرْ : خياط من أهالى بروكسل ، يتقدم ويشد القوس

سُوسْت : تاجر من أهالى بروكسل

سُوسْت : ارمِ إذن ، لتكونوا جميعاً قد رميتم . إنك لن تنزع منى الظفر . ثلاث حلقات سوداء لم تصبها فى حياتك قط أصبتُها أنا . فأنا الفائز هذا العام .

بِتَرْ : فائز وملك أيضاً . فمن يَنْفَسُهُما عليك ؟ لابد لك عندئذ من أن تدفع ضعفى ثمن شرابك ، فهو ثمن مهارتك ، وهذا عدل .

بُوِيك : هولندى وجندى من جنود إجمنت*

بُوِيكْ : بِتر ! إنى أبتاع منك رميتك ، وأقاسمك الفوز . ثم علىّ بعد ذلك أن أقرى الضيف . فقد طال علىّ الزمن هنا ، وبت مديناً بالفضل للكثيرين . فإذا أخطأتُ الهدف ضاعت عليك الرمية ، وكأنك قد رَمَيْتَ .

سوست : إنى حرى بأن أعترض . فهذا فى الحق خسران علىّ . أجل يابويك . ومع ذلك .

بويك : (يرمى) . والآن أيها التلعاب ، احتراما ! حلقة . اثنتان . ثلاث . أربع .

سوست : أربع حلقات ؟ اتفقنا .

الجميع : يعيش الملك . يعيش . يعيش .

(*) بطل هذه الرواية . هو الكونت لامورال إجمنت . برنس دى جور ، سليل أسرة إجمنت الهولندية الشهيرة . أحرز تحت حكم فيليب الثانى ملك أسبانيا الذى سيجىء ذكره ، مجداً حربياً عظيما بانتصاره على الفرنسيين فى سان كنتان وجرافيلنجن فى سنتى ١٥٥٧ و ١٥٥٨ ، وعين حاكما على الفلاندر وأرتوا . وقد كان أبا لأحد عشر طفلا من زوجته الكونتس ساين البفارية . وتاريخه بعد ذلك وارد فى مأساته .

بويك : شكراً أيها السادة . كثير أن أكون الفائز . فلكم الشكر على هذا الشرف .

يتر : أنت الذى تشكر عليه .

رُويْزُم : فريزلندى عاجز وأصم

رويزم : أأقول لكم ؟

سُوست : ماذا ؟ أيها الهرم ؟

رويزم : أأقول لكم ؟ — إنه يرمى كسيده . يرمى كإجمنت .

بويك : لست بالقياس إليه سوى رجل مُغَلَّبْ . إنه يصيب بالبندقية كما لايصيب أحد فى هذا العالم . وليس هذا إذ يكون محظوظا مبتهجاً . كلا ! فحسبه أن يُسَدِّدَ ليصيب دائماً فى الصميم . لقد تعلمت منه . ومن يخدمه ولا يتعلم منه فهو حمار . — لا تنسَوْا أيها السادة أن الملك يطعم رجاله . فعلى حساب الملك : نبيذاً !

يتر : لقد اتفقنا على أن كُلاً منا —

بويك : أنا غريب وملك . فلا تلزمنى قوانينكم وعاداتكم .

يتر : أنت أردأ من الأسبان . فالأسبان لم يروا بدأً إلى الآن من ترك هذه العادة لنا .

رويزم : ماذا ؟

سوست : (بصوت مرتفع) إنه يريد أن يُضَيِّفَنَا . ويرى أن لا نساهمه وأن لا يكتفى الملك بضعفى ثمن شرابه فقط .

رويزم : دعوه . فهى منه دون تحامل . وهو أيضاً أسلوب سيده فى الفخفخة ، وترك الأمور تجرى مجراها .

(يأتون بالنبيذ)

الجميع : فى صحة جلالتك . يعيش

يتر : (لبويك) فليكن يا صاحب الجلالة .

بويك : أشكركم من كل قلبى ما دمتم تريدون هذا .

سوست : فى صحتكم أنتم . إذ ليس من هولندى يشرب من قلبه نخب ملكنا صاحب الجلالة الأسبانية .

رويزم : من ؟

سوست : (بصوت مرتفع) . فيليب الثانى* ملك أسبانيا .

رويزم : ملكنا وسيدنا المعظم . أمد الله فى عمره .

سوست : ألم يكن والده شارل الخامس أحبَّ إليكم منه ؟

رويزم : عليه رحمة الله . هذا هو السيد ، فقد بسط سلطانه على المعمورة كلها . وكان لكم الكلَّ فى الكل . فإذا لقيكم حيا كم كما يحيّ الجارُ الجار . وإذا تملكت أحدَ كم هيبته عرف بلطفه — لا حاجة إلى المزيد فأنتم تعلمون . كان يخرج ، ويركب كلما عَنّ له ، فى حاشية قليلة . وقد بكينا جميعاً ، حين نزل لابنه عن الولاية هنا — فأنتم تعلمون كما قلت . أن هذا غير أبيه . فهو أحرص على الأبهة منه .

يتر : إنه لم يُر حين كان هنا ، إلا محفوفا بمظاهر العظمة والمُلْك . إنه يتكلم قليلا كما يقول الناس .

سوست : ليس هو بالسيد الذى يصلح لنا نحن أهالى الأراضى الواطئة . أمراؤنا يجب أن يكونوا على شاكلتنا ، مرحين طلقاء النفس . يعيشون ويدعون غيرهم يعيش . ولسنا نحب أن نُزدرى أو نُضطهد ، مهما نكن مغفلين طيبى القلب .

يتر : أحسب الملك يكون رحيما لو أن له خيراً من مستشاريه .

سوست : لا . لا . إنه لا يَكِنُّ لنا حباً نحن أهالى الأراضى الواطئة . فليس قلبه بالذى يميل إلى الشعب . إنه لايحبنا ؟ فكيف نقابله بالحب ؟ لماذا يتعلق الجميعُ الكونت إجمنت هذا التعلق ؟ ولماذا حملناه جميعاً على الأعناق ؟ لأننا نرى فيه أنه يُضمر لنا الخير . لأن المرح ،

(*) هو ابن الأمبراطور شارلكان حكم من سنة ١٥٥٥ — ١٥٩٨ ، وكان متعصباً عنيداً طموحا . اعتلى العرش وهو أقوى حاكم فى أوربا يخشى جانبه فطمع فى جيرانه ، واشتهى عروشهم . وكانت الأراضى الواطئة مع غيرها من نصيبه بعد تنازل أبيه ، فسار فيها سيرة غاشمة ، واعتدى على حقوق الأقاليم وحرياتها ، واضطهد البروتستانتية ، وطارد معتنقيها الكثيرين ونكل بهم . تزوج فى السادسة عشرة من مارى البرتغالية ، ثم تزوج من مارى تيودور ملكة انجلترة ، وبلغ عدد من تزوجهن أربعاً . وسعى إلى السيطرة على انجلترة وألمانيا فأخفق ، وناهض فرنسا فلم ينل منها وطراً ، وحاول إخضاع الأراضى الواطئة فلم تخضع . ومات ، وقد أضاع بطمعه كثيراً مما جمعه أبوه ، فهلكت فى زمنه الأرمادا الشهيرة ، وهى أسطول أسبانيا الذى أغرقته العاصفة ، فكان ذلك سبباً لتحكم انجلترة فى مستعمراته ، وتحررت أقاليم الأراضى الواطئة السبعة .

والعيشَ على السجيّة ، والرأىَ الحسن ، تُطل كلها من عينيه ، لأنه لايملك شيئاً لم يشاطر المعوزَ إياه ، وغيرَ المعوز أيضاً . ليعش الكونت إجمنت . وأنت يا بويك ، من له أن يشرب النخب الأول ، اشرب فى صحة سيدك .

بويك : من كل قلبى إذن . يعيش الكونت إجمنت !

رويزم : الظافر فى سان كانتان ،

بويك : وبطل جَرَافِيلِنْجِن .

الجميع : يعيش .

رويزم : كانت سان كانتان آخر معركة لى . كدت أعجز عن التقدم . كدت لا أستطيع جر بندقيتى الثقيلة . ومع ذلك فقد أطلقت النار على الفرنسيين ، فودعونى بطلقة عابرة فى ساق اليمنى .

بويك : جَرَا فِيلِنْجِن ، أيها الأصدقاء . هنا حمى الوطيس من جديد ، وكان لنا وحدنا النصر . ألم يَعِثْ الأجانب الكلاب فساداً فى فلاندر بأسرها ؟ ولكنى أعنى أننا لقيناهم . وقد صمد لنا أشِدَّاؤهم المجرَّبون طويلا . فحملنا ، ورمينا ، وأنزلنا الضربات . فكمدت وجوهُهم ؛ واضطربت صفوفُهم ، وصرع عندئذ جواد إجمنت من تحته . ولبثنا نحن فوق الرمل المترامى المنبسط — رمل البحر ، فى كر وفر . رجلا لرجل ، وجواداً لجواد ؛ وشِرْذِمَةً لشرذمة . وعلى حين بغتة دَوَّت من مصب النهر ، وكأنها نجدةٌ من السماء ، مدافعُ كانت تحصد الفرنسيين ، وكانت لإنجليز عابرين تحت إمرة الأميرال مالين ، قادمين من قرب دنكرك . وحقاً إنهم لم يعينونا كثيراً ، ولم يستطيعوا الاقتراب إلا بصغريات السفن ، فلم يقتربوا مع ذلك الاقتراب الكافى . وكانت طلقاتهم أيضاً تنزل بين ظهرانينا — لكنه كان فى هذا نفع لنا . فتمزقت صفوف الأجانب ، وتقوت منا العزائمُ . فاستعرت نار الحرب ، وأقبل من أقبل ؛ وأدبر من أدبر ؛ ونزلت المنية بكل شىء ؛ ونسف فى الماء كلُّ شىء ؛ وغرق الأنذال حين ذاقوا طعم الماء ، ونحن فى أثرهم — نحن الهولنديين — فأحسسنا نحن الذين نعيش كالضفادع فى الماء وعلى اليابسة ، راحةً فى الماء أول ما أحسسنا وتعقبنا الأعداء فى النهر بالطعن والضرب ؛ وأوقعنا بهم الهزيمة فنفروا كالبط . فمن نجا منهم تولت القرويات قتله عنكم بالفؤوس وأمشاط السماد وهو مدبرٌ . واضطر صاحب الجلالة الفرنسية

أن يمد يده فى الحال و يسالم . وهذه السُّلم أنتم مدينون لنا بها ، مدينون بها لإجمنت العظيم .

الجميع : يعيش . يعيش إجمونت العظيم . يعيش . يعيش .

يتر : ليتهم أقاموه علينا وصياً بدلا من مارغريت دى بَرَما .

سوست : ليس الأمرُ هكذا ؛ فالحق حق . ولست أُؤاخذ مارغريت بشىء . هذا رأيى لتعش سيدتنا المبجلة .

الجميع : تعيش .

سوست : إن فى البيت نُخبةً من النساء الفضليات . فلتحي الوصية .

يتر : أنها حكيمة تتوخى القصد فى كل ما تفعل . فليتها لا تستمسك بالقسس ولا تحرص عليهم هذا الحرصَ . أنها تحمل معنا تبعة بقاء قلانس الأساقفة الأربعة عشَر الجُدُد فى البلاد . ففيم بقاؤهم ؟ أليس صحيحاً أن الأجانب يمكن أن يحشروا فى المراكز الطيبة ، على حين كان يختار لها الاساقفةُ من المحفل الكنسى ، ويراد أن نصدق أن ما يفعلون ، يخدمون به الدين . لقد حرنا فى هذا حقاً . كان حسبنا ثلاثة أساقفة . كان كل شىء يجرى بالقسطاس والعدل . أما الآن فيريد كل من هؤلاء أن يظهر أنه لا غنى عنه ، فيكون أن ينشأ الاستياء ، وتنشبَ القلاقل فى كل لحظة . وكلما رجحتم الشىء وهززتموه اشتد كدره (يحتسون) .

سوست : كانت هذه إرادة الملك فلا نملك معها حذفاً ولا إضافة .

يتر : يريدون أن لا ننشد المزامير الجديدة . وهى فى الحق منطوقة جيداً . وألحانها مهذبة للنفس . هذه المزامير لا ينبغى لنا أن ننشدها ! ولكن ننشد أغانى الخبثاء كما يحلو لنا ! ولماذا ؟ يقولون إن فيها كفراً ! وأشياء يعلمها الله ! ولقد أنشدتها ، وهى شىء جديد لم يلح لى فيه ما يستحق اللوم .

بويك : كنت أريد أن أسألهم . أننا نغنى فى إقليمنا ما نشاء . وهذا لأن الكونت إجمنت حاكمنا . وهو لا يسأل عن مثل هذه الأشياء . وفى غنت وايبر وجميع نواحى فلاندر يغنى هذه المزامير من يشاء (فى صوت عال) ، وليس أبرء من نشيد كنسى ؟ أليس كذلك يا أبى ؟

رويزم : بلا مراء . فهو صلاة ، وهو تهذيب .

يتر : لكنهم يقولون إنه لم يُنْحَ فيها النحو القويم ، ولم يتبع فيها أسلوبهم هم .

والخطر ماثل دائماً من طرق هـذا الموضوع فأولى لنا أن نتركه . فخدام التفتيش يتسللون ويتربصون . وكم من رجل شريف قد شقِى الآن . وكأنه كان ينقصنا أن تضطهد الضمائر أيضاً . وإذا كنتُ لا يجوز لى أن أفعل ما أريد . فلا أقل من أن يتركونى أفكر وأغنى على هواى .

سوست : إنه لا دخل للتفتيش بنا ؛ فلم نخلق كالأسبان نرضى الطغيان على ضمائرنا . ويجب أن يسعى النبلاء الحين بعد الحين إلى قص جناحيه .

يتر : إن هذا لهو الخراب بعينه . فإنه إذا خطر لهؤلاء الأغرار أن يقتحموا علىّ بيتى ، وأنا جالس إلى عملى ، أنغِم مزموراً فرنسياً ، لا يتجه فكرى فيه إلى شىء ، لا إلى الخير ولا إلى الشر ، وإنما أنغمه لانه فى حنجرتى — إذا فعلت ذلك عدونى فى الحال كافراً ، وزجّوا بى فى السجن . أو إذا جُبت أطراف البلاد ، فوقفت بين جماعة من الشعب تستمع إلى واعظ جديد من أولئك الوعاظ الذين يقدمون من ألمانيا ، اعتبرت على المكان متمرداً ، وتعرضت لفقد رأسى . أفلم تسمعوا واحداً يعظ ؟

سوست : أناس شجعان . سمعت أخيراً واحداً يخطب فى الحَقل آلافَ الناس ، فكان شيئاً آخر غير وعاظنا الذين يقرعون الأسماع من فوق المنبر ، ويخنقون الناس بتلك الكِسَر اللاتينية . كان يتكلم صراحة ويقول كيف كانوا إلى الآن يتغفلوننا ويبقوننا فى الجهالة ، وكيف يسعنا أن نستنير . كان يدلل على هذا كله من الإنجيل .

يتر : هـذا قول حق . كثيراً ما قلته نفسى ، وأطلت التأمل فيه ، ودار بخلدى من أمد بعيد .

بويك : إن الشعب كله يتبعهم .

سوست : أعتقد ذلك حيث يسمع الناس شيئاً طيباً وجديداً .

يتر : والآن ماذا هنالك ؟ فى الوسع أن يترك كل إنسان يعظ على أسلوبه .

بويك : انتعشوا أيها السادة ! لقد أنستكم الثرثرة النبيذ واورانيان .

يتر : هذا لا ينسى . إنه متراس يحتمى به . وحسب المرء أن يفكر فيه ليرى أن الشيطان نفسه لن يستطيع إلى امرئ سبيلا متى احتمى وراءه . فليعش غليوم دى أورانيان .

الجميع : يعيش . يعيش .

سوست : وأنت أيها الهرم أغلن نخبك .

رويزم : فى صحة الجنود القدماء أجمعين . لتحيى الحرب .

بويك : مرحى أيها الشيخ . فى صحة الجنود أجمعين . لتحيى الحرب .

يتر : حرب ! حرب ! أتدركون ماذا تصيحون ؟ طبيعى حقاً أن تفلت هذه الصيحة من الأفواه . لكنى لا أستطيع أن أفصح حين أسمعها عن مبلغ ما يتصوره كل منا من ويلاتها . نسمع قرع الطبول طيلة العام ولا نسمع شيئاً غير أن كتيبة آتية من هنا وأخرى من هناك ، وأن قادمين جاءوا من ربوة ، ونزلوا فى طاحونه ، وأن كذا بقى منهم هنا ، وكذا بقى هناك . نسمع كيف يتزاحمون ويتدافعون ، وكيف كسب فريق وخسر فريق من دون أن نعلم يوما من الذى كسب ومن الذى خسر . وكيف سقطت مدينة وذُبح أهلوها ، وماذا أصاب النساء البائسات والأطفالَ الأبرياء . هذا كرب . هذا رعب . وكل لحظة يقول المرء لنفسه « إنهم آتون . وأن مصيرنا حتما هذا المصير » .

سوست : ومن ثم يجب أن يكون المواطن دائماً متدرباً على حمل السلاح .

يتر : أجل . إنه يتدرب من له زوج وأولاد ، ومع ذلك أوثر أن أسمع عن الجند ولا أراهم .

بويك : هذا خليق أن يسىء إلىّ .

يتر : ليس لك هذا الكلام أيها المواطن . إننا تنفسنا الصعداء حين تخلصنا من حاميات الأسبان .

سوست : صحيح . فقد كنتَ أشدنا نكبة بهم .

يتر : أمغيظ أنت ؟

سوست : لقد أقاموا عندك فلم يكونوا خفافا .

يتر : أمسك لسانك !

سوست : لقد أقصوه عن المطبخ والقبو والمخدع — والفراش (يضحكون) .

يتر : إنك رجل بليد .

بويك : سلاما أيها السادة . أيجب أن يدعو الجندى إلى السلام ؟ — أمَا وأنتم لا تريدون أن تسمعوا عنا شيئاً فاشربوا فى صحتكم . فى صحة المدنيين .

يتر : لهذا نحن مستعدون . فلنشرب نخب الأمن والهدوء .

سوست : نخب النظام والحرية .

بويك : مرحى ! هذا يرضينا نحن أيضاً .

(يقرعون الكؤوس ويرددون الأنخاب مرحين بحيث إن كلا منهم يهتف بغير ما يهتف به الآخر ، وتتوالى الهتافات متبادلة متلاحقة . أما الهرم فيصغى ثم ينضم أخيراً فى الهتاف إليهم) .

الجميع : الأمن والهدوء . النظام والحرية .

قصر الوصية

مرغريت دى بارما فى ثياب الصيد . رجال البلاط . غلمان . خدم

الوصية : ألغوا الصيد فلن أركب اليوم . قولوا لمكياڤيل أن يحضر . (يخرج الجميع) إن التفكير فى هذه الأحداث المرعبة يحرمنى الراحة . ليس ما يبهجنى ، وليس ما يروح عنى . دائماً هذه الصور وهذه الهموم ماثلة لعينى . سيقول الملك الآن إن هذه عاقبة طيبتى وتسامحى . ومع ذلك فإن ضميرى يحدثنى كل لحظة بأن ما فعلتُ كان الأحكم والأصوب . أفكان ينبغى أن أزيد النار لهيباً بعاصفة من الحنق أرسلها تستعر فى كل مكان ؟ لقد أملت أن أحصرها ، وأن أخمدها فى مهدها . بلى . إن ما أخاطب به نفسى وما أعلمه علم اليقين يعذرنى أمام نفسى ؛ ولكن كيف يتقبله أخى . ثم أينكر هذا ؟ إن غطرسة المعلمين الأجانب تزداد كل يوم . وقد دنسوا قداستنا وأتلفوا حواس الشعب البليدة وأفسحوا بينه لروح الغش . فاختلطت بالثوار أطياف دنسة . ووقعت أفعال مرعبة ، يرتعد من يفكر فيها . ويتحتم علىّ أن أوافى البلاط بتفصيلها ، وأن أعجل إليه بدقائقها ، حتى لا تسبقنى إليه الصيحة العامة ، وحتى لا يظن الملك أنى أريد أن أخفى عنه أكثر مما يبلغه . لقد أعيتنى الحيلة فى حسم الشر ؛ ولا أهتدى إلى وسيلة قاسية كانت أو ليّنة . ما نحن العظماء فى خضم البشرية ؟ نعتقد أننا نسيطر عليها ، وهى ترفعنا وتخفضنا ، وتدفعنا وتجذبنا .

(يدخل مكياڤيل)

الوصية : هل سطرت الكتب إلى الملك ؟

مكياڤيل : بعد ساعة تستطيعين توقيعها .

الوصية : أفصّلت التقرير بما فيه الكفاية ؟

مكياڤيل : فصلت وأسهبت فيه كما يحب الملك ، قصصت كيف ثارت الثائرة على الصور فى سان أومير أولا . وكيف هاجم أولا جمهورٌ هائج مزود بالعصى ، والفؤوس ، والمطارق ، والمراقى ، والحبال ، مصحوبٌ بفئة قليلة من المسلحين — كيف هاجموا الكنائس والبيع والأديرةَ وطردوا المصلين ، واقتحموا الأبواب الموصدة ، وقلبوا كل شىء رأساً على عقب ، ودكوا الهيا كل ، وحطموا تماثيل القديسين ، وأتلفوا الصور كافة ، وهشموا كل مدشن ومقدس وجدوه ، ومزقوه وداسوه . وكيف تكاثر عديدهم فى الطريق ، وكيف فتح لهم سكان إيبر الأبواب ؛ وكيف خربوا الكنيسة الكبرى فى سرعة خاطفة ؛ وكيف أحرقوا مكتبة الأُسْقُف . وكيف تفشى جمهور عظيم من الشعب ، يتملكه مثل هذا السخف ، فى مينين وكومين وفِرْقِش وليل فلم يلق مقاومة فى أى مكان . وكيف سَفَر وجه المؤامرة الهائلة فى فلاندر بأسرها ونفذت فى لحظة واحدة .

الوصية : لشد ما يتجدد ألمى من إعادتك ، ويقترن بخوفى من أن يستفحل الشر ويتفاقم . أمدنى بأفكارك يا مكياڤيل !

مكياڤيل : عفواً يا صاحبة السمو ، فأفكارى شبيهة بالهواجس ، وعلى أنك كنت دواما مرتاحة إلى خدماتى ، فقد ندر أن اتبعتِ نصائحى . كثيراً ما كنتِ تقولين فى ألم : إنك تنظر إلى أبعد مما ينبغى يا مكياڤيل ؛ كنتَ خليقاً أن تكون مؤرخا ! من يعمل يجب أن يحتاط لما هو آت . ومع ذلك ألم أتكهن بهذه القصة ؟ ألم أتنبأ بكل شىء ؟

الوصية : إنى أتكهن أيضاً بالكثير ، من دون أن أقدر على تغييره .

مكياڤيل : كلمة تغنى عن ألف ؛ إنك لا تقمعين العقيدة الجديدة . فاتركيها تعتنق ، واعزلى معتنقيها عن المؤمنين الصادقين . اعطيهم كنائس ، وأدرجيها فى النظام المدنى ، وقيديها ، تحملى الثائرين دفعة واحدة على الإخلاد إلى السكينة . وكل وسيلة غير هذه لا تجدى ، بل تجرين بها الخرابَ على البلاد .

الوصية : أنسيتَ كيف نفر أخى ورفض حتى أن يُسأل : أفى الإمكان الإغضاء عن العقيدة الجديدة ؟ ألا تعلم كيف أشار علىّ فى ذلك الكتاب بأن أحرص كل الحرص على سلامة العقيدة الحقة . وأنه لايجب أن يسمع عن رد الهدوء والاتحاد إلى نصابيهما ، على

حساب الدين ؟ ألا يتخذ لنفسه فى الأقاليم عيونا نجهلها نحن ليعرف من يميل إلى الرأى الجديد ؟ ألم يذكر لنا للعجب الشديد ، أسماء من يتورطون خفية فى الهرطقة على مقربة منا ؟ ألم يأمر بالصرامة والشدة ؟ ثم يُراد أن أكون رحيمة ؟ وأن أقترح عليه أن يتساهل ، وأن يغض الطرف ؟ ألا أفقد بهذا كل ثقة وكل يقين له بى ؟

مكياڤيل : أعلمُ جيداً أن الملك يأمر ، وأنه يحيطك بنياته ، وأن عليك أن تعيدى الهدوء والسلام بوسيلة لن تفلح إلا فى زيادة الامتعاض ، وفى إشعال نار الحرب فى كل مكان ، فتدبرى ما تفعلين . إن كبار التجار قد سرت العدوى إليهم كما سرت إلى النبلاء والشعب والجنود ، فما يفيده الإصرار على رأيه ، وكل شىء من حولنا يتبدل ؟ ليت روحا طيبة تحدو فيليب فيعلم أنه أكرم للملك أن يحكم رعايا بعقيدتين ، من أن يدفع بعض هؤلاء الرعايا ببعض .

الوصية : حذار من أن تعيد هذه الكلمة مرة أخرى . اعلم جيداً أنه يندر أن تعرف السياسةُ الوفاءَ والإيمان . واعلم أنها تُحرِّمُ علينا الصراحةَ والطيبةَ والتساهل . وهذا للأسف حقيق ، وفوق الحقيق فى أمورنا الدنيوية . أفينبغى أيضاً أن نعبث بالله كما نعبث بأنفسنا ؟ أينبغى أن لا نكترث لعقيدتنا السليمة التى ضحى من أجلها الكثيرون بأنفسهم ؟ أمثل هذه العقيدة يراد أن نسلمها إلى بدع حادثة ، مزعزعة ، متناقضة ؟

مكياڤيل : لا يجعلك هذا تزدادين سوء ظن بى .

الوصية : إنى أعرفك وأعرف إخلاصك ، وأعلم أن المرء يمكن أن يكون رجلا شريفاً عاقلا ، وإن فاتته راحة النفس فى أول فرصة . وهناك يا مكياڤيل رجال آخرون أقدرهم وألومهم معاً .

مكياڤيل : إلى من تشيرين ؟

الوصية : إنى أستطيع أن أعترف بأن إجمنت قد أثار اليوم فى نفسى سخطاً عميقاً .

مكياڤيل : بأى شىء فعل ؟

الوصية : بسلوكه المألوف ، بقلة اكتراثه وخفته . لقد تلقيت الرسالة المخيفة فى الوقت الذى خرجت فيه من الكنيسة بصحبة الكثيرين ورفقته ؛ فلم أكتم ألمى . بل شكوت

جهاراً . وصحت وأنا ألتفت إليه : انظر ما هو حادث فى إقليمك ، أعلى هذا تصبر يا كونت وأنت من توسم فيه الملك كل خير ؟

مكياڤيل : وبمَ أجاب ؟

الوصية : أجاب كأن لم يكن فى الأمر شىء ، وكأن الأمر ثانوى . أجاب : ليُفرِخْ أولا روع الهولنديين من نحو دستورهم يستتب الأمر فيما خلا ذلك .

مكياڤيل : لعله كان فى كلامه أصدق مما كان أحكم وأكيس . وكيف تنشأ ثقة وتقوم إذا رأى الهولندى ، أن الاهتمام بأملاكه ، أكثر من الاهتمام بخيره وراحة نفسه ؟ هل أنقذ المطارنة الجدد من الأنفس أكثر مما أكلوا من الأموال ؟ ثم هم إلى ذلك أليسوا غرباء ؟ لا تزال مناصب الولاة بأيدى الهولنديين ، ولكن ألم يظهر الأسبان جلياً أن أعظم ما يشتهون وما لا يستطيعون مغالبته هو هذه المناصب ؟ ألا يُؤثِرُ شعب أن يحكمه أبناؤه على أسلوبه ، على أن يحكمه غرباء ، جل همهم فى البلاد أن يقتنوا الأملاك على حساب الجميع ، وأجانب ، يقيسون الأمور بغير قياسهم ، ويحكمونهم حكما لا لين فيه ولا هوادة ؟

الوصية : إنك تناصر الخصوم .

مكياڤيل : ليس بقلبى على التحقيق ، وكم وددت أن أكون برأسى لجماعتنا نعم النصير .

الوصية : إذا شئتَ واقتضى الأمرُ نزلت لهم عن الوصاية . ذلك أن إجمنت وأورانيان* يتطلعان كثيراً إلى هذا المركز ، وقد كانا فيما سلف خصمين . فالآن يتحدان علىّ ، ويصبحان صديقين ، لا ينفصلان .

مكياڤيل : زوج خطر .

الوصية : أأتكلم بإخلاص ؟ إنى لأخشى أورانيان وأخاف على إجمنت . فأورانيان لا يضمر خيراً ، وأفكاره بعيدة القرار . إنه خفىّ ويلوح قابلا لكل شىء ، لا يعارض

(*) هو الدوق غليوم أورانيان سليل بيت أورانيان ، وأمير من أمراء الأراضى الواطئة الذين ناهضوا حكم الأسبان . كان فى طليعة المجاهدين فى سبيل حرية بلاده ، فلما قدم دوق ألبا إلى الأراضى الواطئة وتوقع أنه يبيت الشر كما سيجىء ذكره هرب إلى ألمانيا . ثم حاول هو وأخوه غزو بلاده ، وطرد الأسبان منها فأخفق . لكنه فى سنة ١٥٧٢ وفق على رأس حلف الأمراء فى الاستيلاء على بعض الأراضى الواطئة ، ومعظم المدن الهولندية ثم اتحدت الأقاليم السبعة — أقاليم الأراضى الواطئة — تحت إمرته ، وأعلنت فى سنة ١٥٨١ انفصالها عن أسبانيا ، وشهرت الحرب عليها . وقد مات أورانيان بعد تحرير بلاده ، وإن جاء الاعتراف باستقلالها متأخراً .

أبداً . لكنه بكل احترام وفى حذر شديد يفعل ما يشاء .

مكياڤيل : على النقيض من هذا تماما يسير إجمنت على هواه كأنما الدنيا ملك له .

الوصية : إنه متغطرس أكثر مما ينبغى ، كأنما يد صاحب الجلالة لا تعلو عليه .

مكياڤيل : إن أعين الشعب متجهة كلها إليه ، والقلوب متعلقة به .

الوصية : لم يحاول أبداً أن يخفى شيئاً ، كأن ليس من يستطيع مناقشته الحساب . ولا يزال يحمل اسم إجمنت . يسره أن ينادوه بالكونت إجمنت كأنما لا يحب أن ينسى أن أجداده كانوا ذوى ثروة ومال . لماذا لا يتسمى ببرنس دى جور كما هو من حقه ؟ لماذا يفعل هذا ؟ أيريد أن يسترد حقوقاً ضاعت ؟

مكياڤيل : إنى أعتبره خادما مخلصاً للملك .

الوصية : لو شاء لكان له فضل على الحكومة بدل أن يسخطنا سخطا لا مزيد عليه ، من دون نفع يجنيه . إن مجتمعاته وولائمه ومآدبه قد ألّفت بين النبلاء ووثقت روابطهم ، أكثر مما فعلت الاجتماعات السرية الخطرة . لقد تولت ضيوفَه من أنخابه نشوة دائمة ، وتملكهم دوار لن يفيقوا أبداً منه . كم حرك بفكاهاته نفوس الشعب ، وكم أذهل الدهماء ببذات خدمه الجديدة وشاراتهم السخيفة .

مكياڤيل : أعتقد أنه لم يكن عامداً !

الوصية : حسبُه هذا . إنه يُضِرّ بنا كما قلت ولا ينفع نفسه . إنه يقابل الجد بالسخر . ونحن لكى لا نبدو متهاونين متسامحين نقابل سخره بالجد . هكذا يثير الواحد الآخر ، فإذا الذى يُحاول المرء دفعه قد رسخ وتقرر . إنه أخطر ممن يدبر المؤامرة متعمداً . وإنى لأكون مخدوعة جداً إذا لم يكن البلاط يظن به الظنون . ولا أستطيع أن أنكر أنه لا يفتأ يثيرنى ، ويثيرنى جداً .

مكياڤيل : إنه يبدو لى فى كل ما يعمله مرضياً ضميره .

الوصية : إن لضميره مرآةً ترضيه ، وسلوكه مبين غالباً . إنه يلوح كما لو كان يعيش مقتنعاً كل الاقتناع بأنه سيد . وأنه يريد تفضلا منه أن لا يشعرنا بذلك . يريد أن لا يطردنا إلى بلادنا لأن هذا سيكون يوما ما .

مكياڤيل : أرجوك يا صاحبة السمو أن لا تغلِّىْ فى تفسير الخطر من صراحته ، ودمه

الحامى ، الذى يجعله يستخف بكل جليل . إنك إذاً تلحقين به و بنفسك الأذى .

الوصية : إنى لا أفسر شيئاً . بل أتكلم عن العواقب التى لا مفر منها . وأنا أعرفه . إن نبله الهولندى وقلادة الفروة الذهبية فوق صدره يقويان ثقته ، ويزيدان من جرأته . وكلاهما يحميه من غضب الملك إذا جاء سريعاً متعسفاً . تحرّ الأمر بدقة تجد أنه وحده المسئول عن كل الشقاء الذى يلم بفلاندر . لقد أغضى أولا عن الوعاظ الأجانب ، ولم يدقق فى أمرهم . ولعله سُر فى نفسه من أننا نلقى المتاعب — دعنى أتم كلامى . إن ما يمضنى يجب بهذه المناسبة أن أنفضه . ولست أحب أن تطيش سهامى ، فأنا أعلم أين حساسيته . فهو أيضاً حساس .

مكياڤيل : هل دعوت المجلس إلى الاجتماع ؟ أيأتى أورانيان أيضاً ؟

الوصية : لقد بعثت إلى أنفرس فى طلبه . إنى أريد أن يحملا أيضاً معى عبء التبعة . يجب أن يناهضا معى الشرّ جادّين ، أو يعلنا عصيانهما . عجل بإعداد الرسائل وأحضرها إلىّ للتوقيع . ثم أنفذ باسكا الأمين إلى مدريد على عجل ، فهو جلود مخلص ، حتى يعلم أخى النبأ منه أولا ، وحتى لا تسبقه الصيحة . أريد أن أكلمه بنفسى قبل أن يرحل .

مكياڤيل : ستنفذ أوامرك فوراً و بدقة .

بيت من بيوت الرعية

كلارا . أم كلارا . براكنبورغ

كلارا : ألا تمسك الخيط لى يا براكنبورغ ؟

براكنبورغ : أرجوك يا كلارا ! أمّا أعفيتنى ؟

كلارا : ما بك من جديد ؟ لِمَ تأبى علىّ هذه الخدمة الحبيبة الصغيرة ؟

براكنبورغ : إنك تستبقينى بالغزل فى مواجهتك حتى لا قبل لى بالتفادى من عينيك .

كلارا : وساوس ! تعال وأمسك .

الأم : (على مقعد تحيك) — غنيا شيئاً . فبراكنبورغ يحسن السند . و إلا فقد كنتما تتمازحان ، وكان لى دوما ما أضحك منه .

براكنبورغ : كنا .

كلارا : فلنغن !

براكنبورغ : كما تريدين .

كلارا : فلننشط إذن ولنبدأ بحمية . فهى أغنية جندى . وأنشودتى المحبوبة

(تلف الخيط وتغنى مع براكنبورغ) :

يا لقرع الطبول يا لعزف القرب
يا لأمر الحبيب فى الكتيبة اللجب
مشرعا للسنان يحكم المرتهب
يا لخفق الفؤاد ها دمى يلتهب
ليتنى أرتدى سترةً والثقب
وتزين هامتى كمةُ المحترب

* * *

أبرح المدينة فى ركاب الحبيب
بخطى جريئة وثبات عجيب
لنواح غدت للعدو لا تطيب
والعدو ممعن فى الفرار لا يجيب
أن تكون فى الرجال ذاك حظ إن تصب

(ينظر براكنبورغ فى أثناء الغناء إلى كلارا مراراً . وأخيراً يحتبس صوته وتخضل عيناه بالدموع ويسقط الملف ، ويذهب إلى النافذة ، فتكمل كلارا الأغنية وحدها ، فسرعان ما تومئ إليها الأم مستاءة ، فتنهض وتخطو فى أثره خطوات ، ثم ترتد نصف مترددة وتجلس)

الأم : ما هنالك فى الزقاق يا براكنبورغ ؟ اسمع سير الجند .

براكنبورغ : إنه حرس الوصية .

كلارا : فى هذه الساعة ؟ ما معنى هذا ؟ (تقف وتذهب إلى براكنبورغ عند النافذة) ليس هذا بالحرس اليومى . إنه أكثر عديداً بكثير . يكاد يكون بجمعه كله . اذهب يا براكنبورغ وتسقط الخبر . لابد أن يكون هناك شىء غير مألوف . اذهب يا براكنبورغ الطيب وأولنى هذا الجميل .

براكنبورغ : أنا ذاهب وسأعود حالا (يمد إليها يده وهو منصرف فتناوله يدها) .

الأم : تقصينه مرة أخرى .

كلارا : إنى أستطلع ما هنالك . ومحضره أيضاً يؤلمنى فلا تؤاخذينى . لا أزال فى حيرة من أمرى لا أدرى كيف أعامله . فقد أسأت إليه . ويحز فى قلبى أنه شديد الإحساس بهذا من نحوى — ولكن ما حيلتى فى ذلك .

الأم : إنه فتى شديد الوفاء .

كلارا : ولست لهذا بمتخلية عنه ؛ فيجب أن أتلطف معه . كثيراً ما تضغط يدى بغتة على يده حين يمسكها فى رفق وحب ، وإنى لآخذ نفسى بأنى أخدعه ، وأنّى أُحْيِى فى قلبه أملا ضائعاً . وإنى لمسيئة فى هذا ، لكنى علم الله لا أخدعه . ولا أحب أن أرخى له فى حبل الأمل . ثم إننى لا يسعنى أن أسلمه لليأس .

الأم : ليس هذا بالحسن .

كلارا : لقد أحببته فيما سلف ، ولا أزال أحفظ له فى نفسى وداً . وكان يمكن أن نتزوج . لكنى أعتقد أننى لم أُغرم به قط .

الأم : كنت خليقة أن تظلى سعيدة دائماً معه .

كلارا : كنت إذن كفيت الحاجة ، وكنت عشت معه عيشة هادئة .

الأم : وهذا كله قد أفسدتِه بيدك .

كلارا : إننى لفى موقف عجيب . حين أفكر كيف وقع ما وقع أرانى مدركة له ، وأرانى غير فاهمة إياه . ولأرَ بعد ذلك إجمنت مرة أخرى يصبح كل شىء فى نظرى مفهوما جداً ، بل أكثر كثيراً من مفهوم جداً . آه ! ما أعظم هذا الرجل الواحد . كل الأقاليم تعبده . وأنا فى ذراعه ، ألست أسعد مخلوقة على وجه الأرض ؟

الأم : كيف يكون هذا فى المستقبل ؟

كلارا : أخ ! إنى لأسأل فقط . هل يحبنى ؟ وهل حبه لى موضع سؤال ؟

الأم : ليس للأم غير مخاوف القلب من نحو أطفالها . وكيف تكون النتيجة ؟ دائماً هما وحزنا . إن نهاية هذا لن تكون حسنة . وقد شقيتِ وشقيتُ بك .

كلارا : (هادئة) لقد أغضيتِ عن ذلك بادئ ذى بدء .

الأم : كنتُ للأسف أطيب مما ينبغى ، وأنا دائماً أطيب مما ينبغى .

كلارا : حين مر إجمنت راكباً ، وهُرعتُ إلى النافذة . أنهيتنى ؟ ألم تأتى إلى النافذة نفسك ؟ وحين رفع بصره وابتسم ، وأومأ برأسه ، وحيانى ، أأسخطك ذلك ؟ ألم تشعرى بأنك كُرِّمت فى شخص ابنتك ؟

الأم : أتوجهين إلىّ ملاما أيضاً ؟

كلارا : (متأثرة) وحين كان يكثر من المرور بالشارع ، وكنا نحس أنه إنما يسلك هذا الطريق من أجلى ، ألم تلاحظى ذلك فرحة فى نفسك ؟ أكنتِ تَدْعِينى إلى الارتداد عن النافذة حين كنت أقف وراء زجاجها أترقب مجيئه ؟

الأم : أكنتُ أظن الأمر يذهب إلى هذا الحد ؟

كلارا : (بصوت محتبس ودمع مكبوح) — ولما باغتنا مساء عند المصباح ملتفا بعباءته ، من عُنى باستقباله ، إذ أنا على مقعدى كالمسمرة أتأمله مشدوهة ؟

الأم : أَوَسِعَنى أن أتوقع وشيكا أن يكتسح هذا الحبُّ الأسيفُ كلارا الحكيمة . الآن يجب أن أتحمل أن تكون ابنتى —

كلارا : (فى دمع متفجر) أماه ! إذن تريدين هذا ! إنك تجدين مسرة فى إرْعَابِى .

الأم : (باكية) — إبكى أيضاً . زيدى باكتئابك شقائى ! أليس حسبى حزنا أن تكون ابنتى الوحيدة مخلوقة مرذولة ؟

كلارا : (تنهض فى برود) — مرذولة ! حبيبة إجمنت مرذولة ؟ أيَّةُ أميرة لم تحسد كلارا الفقيرة على مكانها من قلبه ؟ أماه ! — أماه ! . ما هكذا كنت تتكلمين . أمى الحبيبة ، كونى رحيمة ! الشعب وظنونه ، والجارات وما يَلْغَطْن به ، كل هذا أجعله دَبْرَ أُذُنِى مادامت هذه الحجرةُ وهذا البيتُ الصغيرُ قد باتا لى جنة النعيم مذ سكنه حب إجمنت .

الأم : يجب أن يكون المرء معه ظريفا ؛ هذا صحيح . فهو دائماً لطيفٌ ، سمحٌ ، صريح .

كلارا : إنه لا يبغى بنا شراً . انظرى أماه ! فهو مع ذلك إجمنت العظيم . وحين يزورنى كم يتودد إلىّ ، وكم يتلطف معى ، كم ود أن يخفى عنى مركزه ويكتم فعاله . كم يقلق علىّ ! وهو فى هذا إنسان فحسب ، وصديق فحسب ، وأحب الناس إلىّ فحسب .

الأم : أهو آت اليوم ؟

كلارا : ألم ترينى أكثرُ الترداد على النافذة ؟ ألم تلحظى كيف أُنصتُ كلما سمعت حِسًّا بالباب ؟ أعلمُ أنه لن يأتى قبل إقبال الليل . ومع ذلك فهو فى حدسى فى كل لحظة منذ الصباح ، ومنذ أنهض . ليتنى غلام أستطيع أن أرافقه دوما إلى البلاط وفى كل مكان . ليتنى قادرة على أن أحمل علَمه ، حين يحمى الوطيس ويدور القتال .

الأم : لقد كنت دائماً فتاة رعناء . مذ كنت طفلة وأنت تثورين تارة وتارة تقرين . ألا تغيرين ملابسك هذه بخير منها ؟

كلارا : قد أفعل يا أماه ، حين أضجر — أمسِ ، مر بعض رجاله يغنون الأغانى فيه . كان اسمه على الأقل فى تلك الأغانى . أما ما خلاه فلم أفهمه . لقد خفق قلبى حتى طغت دقاته على عنقى . كنت حريةً أن أستوقفهم لو لم يتولنى الخجل .

الأم : حذارِ . إن طبيعتك العنيفةَ تفسد عليك كل شىء . إنك تفضحين نفسك أمام الناس . كذلك فعلتِ أخيراً عند ابن عمك . إذ وجدتِ الصورةَ ومدلولها ، فصحتِ على الفور : كونت إجمنت . وصعد الدم الحار إلى وجهى حينذاك .

كلارا : أكان ينبغى ألا أصيح . لقد كانت صورة معركة جراڤيلنجن . وقد وجدت حرف « ج » وقرأت فى بيان هذا الحرف : الكونت إجمنت وقد صرع جواده من تحته . لقد سرتْ الرِّعْدَةُ فى جسمى — ثم لم ألبث أن ضحكت لرؤية إجمنت فى الصورة المحفورة ضخما كبرج جراڤيلنجن . والسفن الإنجليزية بجانبه — إننى حين أذكر كيف كنت أتصور المعارك ، وكيف كنت وأنا فتاة ، أتخيل الكونت إجمنت من حديث الناس عنه ، وأتخيل سائر النبلاء والأمراء — وكيف أنا الآن .

(يأتى براكنبورغ)

كلارا : ما وراءك .

براكنبورغ : لايعلم أحد بالخبر اليقين . يقال إن اضطرابا وقع حديثاً فى فلاندر وإن الوصية يقلقها أن يمتد إلى هنا . والقصر قد عُزِّزَ حراسه ، والأهالى عديدون عند أبواب المدينة ، والشعب يلغط فى الأزقة — أريد أن أبادر إلى أبى الشيخ (يهم بالانصراف) .

كلارا : أأراك غداً ؟ أريد أن أعدِّل ثيابى قليلا . فابن عمى آت . ومظهرى غير

لاثق بحال . عاونينى لحظة يا أماه . خذ الكتاب معك يابرا كنبورغ . وعد إلىّ ثانية بحكاية كهذه .

الأم : أستودعك الله .

برا كنبورغ : (مادا يده) يدك .

كلارا : (مانعة يدها) حين تعود . (تنصرف الأم والبنت) برا كنبورغ (وحده) كنت أعتزم أن أعود أدراجى من فورى فلما لم تمانع وتركتنى أمضى ، أرى بى ميلا إلى أن أثور — يا للتعس ! ومصير وطنك ، ألا يحرك ساكنك ؟ والفتنة المستفحلة ، لا ؟ — وسيان عندك المواطن والأسبانى ؟ ومن يحكم وصاحب الحق ؟ — أكنتَ فى الصبية شيئاً آخر غير التلميذ . — حينما كنا نعطى تمريناً : « خطبة بروتس فى الحرية » للتمرن على فن الخطابة . كان دائماً فريتس هو الأول ، وكان المدير يقول لى لو أن إلقاءك أحسن قليلا ! لو لم يزحم كل شىء فى ذهنك بعضه بعضا ! — عندئذ كانت نفسى تغلى وكل ما فيها يدفعنى — والآن أرانى أجر نفسى جراً وتجذبنى عينا الفتاة ، لا أستطيع عنها حولا . ولا تستطيع أن تحبنى . — ولكن — لا — إنها — إنها لا يمكن أن تكون نبذتنى كل النبذ — ليس كل النبذ — نصفه ، لا شىء . — لا أحتمل هذا أكثر مما احتملت . — أصحيح ما همس به صديق فى أذنى حديثاً ؟ قال إنها تستقبل عندها رجلا بالليل خفية . إذ هى تقصينى دائماً قبل المساء عن البيت شأن ذات عفاف . لا . ليس هذا صحيحاً . إنه افتراء ، إنها سعاية خسيسة . فكلارا بريئة كما أنا شقى ، ما فى ذلك شك — إنها نبذتنى . وعن فؤادها نفتنى . وأعيش بعد هذا هكذا ؟ لا أحتمل . إنى لا أحتمل . — إن وطنى تهزه أعاصير الفتنة الداخلية . وأفنى أنا مغموراً ؟ لا أطيق هذا ! — حين ينفخ فى البوق وأسمع طَلَقا ترتعد فرائصى ! واهاً لى ! ما أرى الأمر يستفزنى . ما أراه يدعونى إلى المشاطرة فى الجهاد ، والمساهمة فى الإنقاذ والإقدام — يالها من حال تعسة مريرة ! خير لى أن أنتهى دفعة واحدة . حديثاً دفعتُ بنفسى إلى الماء . ففصت — لكن الطبيعة المروعة كانت أقوى منى ، فأحسست أنى أستطيع السباحة ، وأنقذت نفسى على الرغم منى — أكان يسعنى أن أنسى الأيام التى

فيها أحبتنى أو لاح لى أنها تحبنى ؟ لماذا سرت الرجفة فى أعضائى ، رجفة الهناء ؟ لماذا التهمت هذه الآمال مُتع حياتى حين لوّحت لى بالفردوس من بعيد ؟ — وتلك القبلة الأولى ! القبلة الوحيدة ! — هنا (يضع يده على المائدة) هنا كنا وحدنا — وكانت دائماً طيبة معى ، ودودة لى — هنا لاحت تتملكها الصبابة فنظرت إلىّ ! فتخدرت حواسى ، وأحسست شفتيها على شفتى — و — والآن ؟ — مت أيها المسكين . فيم ترددك ؟ (يخرج زجاجة من جيبه) . لم أسرقك عبثا من حقيبة الطبيب التى يحملها أخى . أيها السم الشافى ! إليك هذا الروع ، وهذا الدوار ، وهذا العرق المتصبب من خشية الموت فابتلعه وافنِه .

الفصل الثانى

ميدان فى بروكسل

يتر ومعلم نجار يدخلان معاً

المعلم النجار : ألم أتنبأ بهذا ؟ من ثمانية أيام فقط قلت فى النقابة إن قلاقل شديدة ستقع .

يـــتر : أصحيح إذن أنهم نهبوا الكنائس فى فلاندر ؟

المعلم النجار : لقد هدموا الكنائس والبيَع — ولم يبقوا إلا الجدران الأربعة عارية . كلهم حثالة ورعاع ! وهذا يفسد علينا قضيتنا العادلة . كان ينبغى أن نرفع الأمر إلى الوصية متمسكين بأهداب النظام وبحقنا ، ونقف عند هذا الحد . أما الآن فإذا تكلمنا ! وإذا اجتمعنا ! كان معنى ذلك أننا نؤازر الثوار .

يتر : أجل . هذا ما يراه كل منا لأول وهلة . وماذا تستطيع بأنفك فى المقدمة ؟ إن عنقك مرتبط به عن كَثَب .

المعلم النجار : إنه لما يقلق أن يرتفع اللغط مرة بين الرعاع ، بين الدهماء الذين ليس لديهم ما يفقدون ، فمثلهم فى حاجة إليه ، ليتخذوه ذريعة لجر الشقاء على البلاد . وهذا أمر يجب أن نلوم أنفسنا عليه .

(سوست ينضم)

سوست : عِمَا صباحا أيها السيدان ! هل من جديد ؟ أصحيح أن مهاجمى الصور يقصدون إلى هنا رأساً ؟

المعلم النجار : ليس لهم ما يمسونه عندنا .

سوست : لقد دخل عندى جندى يشترى طباقا ، فعلمت منه الكثير : عَلِمتُ أن الوصية ، هذه السيدة الحكيمة الباسلة ، قد ثار ثائرها هذه المرة . ولابد أن يكون الأمر جللا ، حتى دفعها إلى أن تحتمى هذا الاحتماء وراء حرسها . إن القلعةَ تزخر بالجنود ؛ بل إنه ليقال إنها تريد الهرب من المدينة .

المعلم النجار : ينبغى ألاَّ تخرج ؛ فوجودها يحمينا . نريد أن نضمن لها من السلامة

أكثر مما تتيحه لها شوارب حرسها المفتولة . وإذا حفظت لنا حقوقنا وحرياتنا حملناها على الاعناق .

(ينضم سَيْفِنْسِيدَر)

سيفنسيدر : قلاقل شنيعة . قلاقل سيئة . سيضطرب الحبل ويفسد الأمر . احرصوا على أن تظلوا هادئين حتى لا يعتبروكم من الثوار .

سوست : ها هم أولاء الحكماء السبعة آتون من اليونان .

سيفنسيدر : أعْلَمَ أن ثمة كثيرين ضالعين سراً مع الكالفينيين يذمون الأساقفة ولا يهابون الملك . لكن المواطن المخلص والكاثوليكى الامين (ينضم إليهم شيئاً شيئاً أنماط مختلفة من الشعب ويصغون إليهم) .

(يتقدم فانسن)

فانسن : حيا كم الله أيها السادة . هل من جديد ؟

المعلم النجار : لا شأن لكم به ، فهو امرؤ سوء .

يتر : أليس هو كاتب الدكتور ثيتس ؟

المعلم النجار : لقد خدم سادة كثيرين . كان كاتباً فى مبدأ أمره ؛ فلما طرده سيد إثر سيد لخبث فعاله ، جَعَل يحشر نفسه الآن فى زمرة المسجلين والمحامين . وهو إلى هذا سكير .

(يتكاثر الناس ويقفون جماعات) .

فانسن : أنتم أيضاً مجتمعون تتهامسون . هذا يغرى دائماً بالكلام .

سوست : هذا رأيى أيضاً .

فانسن : لو كان لهذا أو ذاك قلب ، ولهذا أو ذاك رأس أيضاً لاستطعنا أن نحطم أغلال الأسبان دفعة واحدة .

سوست : يا رجل ! ما هكذا يكون الكلام ! فقد أقسمنا للملك يمين الطاعة .

فانسن : وأقسم الملك لنا . لاحظوا ذلك !

يتر : هذا يستحق السماع . فما رأيك ؟

بعض آخر : اصغوا ! إنه ملم . إنه أريب .

فانسن : كنت أعمل عند هَرِم يملك رقوقا ورسائلَ من معاهدَ قديمة ، وعقوداً

وأحكاما . وكان يقدِر أندر الكتب ، وكان فى إحداها دستورنا بأكمله ، وكيف كان يحكمنا نحن الهولنديين بادئ ذى بدء بضعةُ أمراء طبقا لحقوق وامتيازات وعادات آيلة . وكيف كان أجدادنا جميعاً يبجلون أميرهم عند ما يحكمهم بما يرضى الله . وكيف كانوا يحتاطون للأمر إذا حدثته نفسه بقطع الحبل ، وكيف تكونت الولايات إثر ذلك ، فكان لكل مقاطعة ، بالغاً ما بلغ صغرها ، ولاياتها وأملاكها .

المعلم النجار : كفاك ثرثرة ! فكلنا يعلم هذا من قديم ، وكل مواطن مستقيم يعرف من الدستور ما يحتاج إليه .

يتر : دعه يتكلم ؛ فالمرء يزداد دائماً علما .

سوست : إنه محق كل الحق .

عديدون : تكلم ! تكلم ! فمثل هذا لايسمع كل يوم .

فانسن : أفأنتم إذن أهل البلاد ؟ إنكم تعيشون حيثما اتفق . وكما آلت إليكم حرفكم من آبائكم كذلك آل إلى الحكومة الأمرُ والنهى فيكم كما تستطيع وتحب . إنكم لا تسألون عن الأصول ، عن التاريخ ، عن حق الوصى . فوقعتم من جراء ما فاتكم فى شرك الاسبان .

سوست : من يفكر فى هذا وعنده قوت يومه .

يتر : سحقا ! لم لايظهر أحد الحين بعد الحين ، ويقول لنا مثل هذا الكلام ؟

فانسن : إنى أقولها لكم الآن . إن ملك اسبانيا الذى جعله الحظ ملكا على لأقاليم ، لايجوز له أن يحكم ويسود ، بغير ما حكم وساد الأمراء الصغار فيما كان لهم فرادى من مقاطعات فى سالف الزمان . أتفهمون ؟

يتر : وضِّح لنا .

فانسن : هذا أوضح من الشمس فى رائعة النهار . أما يجب أن يُقضى فيكم حسب قوانين البلاد ؟ فكيف كان ذلك ؟

أحد الأهالى : حقاً !

فانسن : أليس لأهالى بروكسل قانون يختلف عن قانون أهالى آنْتِرس ؟ وللأنفرسى غير ما لِلجِنْتِى ؟ فكيف كان ذلك ؟

آخر : صحيح !

فانسن : فإذا تركتم الأمر يجرى كما يجرى ، أمرتم وشيكا بغير ما تجيزه قوانينكم . خسؤاً لكم ! إن ما عجز عنه شارل الجرئ وفريدريك المحارب وشارل الخامس يفعله فيليب على يد امرأة !

سوست : عندك ! فالأمراء القدماء قد فعلوه أيضاً .

فانسن : بلا مراء ! — كان أجدادنا يقظين . فإذا ما حَنَقُوا على سيد قبضوا على ابنه ووريثه ، وارتهنوه عندهم ، ولم يردوه إلا بخير الشروط . إن آباءنا كانوا رجالا . كانوا يعرفون ما ينفعهم ، كانوا يعرفون كيف يقبضون على الشيء فلا يفلتونه . فهم رجال حقاً . ومن ثم كانت امتيازاتنا جلية واضحة ، وحرياتنا مؤكدة .

سيفنسيدر : ماذا تقول عن حرياتنا ؟

الشعب : عن حرياتنا ، عن امتيازاتنا ، حدثنا عن امتيازاتنا .

فانسن : نحن البرابنتيين ، وإن كانت للأقاليم جميعاً مزاياها ، مُزَوَّدُون خاصة بخير ما هنالك . لقد قرأت كل شيء .

سوست : نبئنا !

يتر : أسمعنا !

مواطن : أرجوك !

فانسن : مكتوب أولا : ينبغى أن يكون الدوق دى برابانت لنا سيداً صالحا أميناً .

سوست : حسناً . أثابت هذا بهذا النص ؟

يتر : أميناً ؟ أصحيح هذا ؟

فانسن : كما أقول لكم : فهو ملزم حيالنا كما نحن حياله .

ثانياً : ينبغى أن لايقيم فينا الدليل على سلطان أو استبداد أو يجعل أيَّهما ملحوظا ، أو يسمح بالتفكير فيه بحال من الأحوال .

يتر : جميل ! جميل ! لا يقيم الدليل !

سوست : لايجعله ملحوظا !

آخر : ولا يسمح بالتفكير فيه! هذه هى أهم نقطة . لا يسمح لأحد بحال من الأحوال.

فانسن : بعبارات جلية .

يتر : أحضر لنا الكتاب .

مواطن : أجل . نريد الكتاب .

آخر : نريد أن نذهب إلى الوصية بالكتاب .

آخر : ينبغى أن تكون لساننا يا حضرة الدكتور .

سيفنسيدر : يا للأغبياء !

آخرون : زدنا من الكتاب !

سيفنسيدر : إنى أحطم أسنانه إذا نطق بكلمة أخرى .

الشعب : نريد أن نرى منذا يتعرض له . أسمعنا شيئاً عن الامتيازات ألا تزال لنا امتيازات ؟

فانسن : بِضْعَةٌ طيبة جداً ، وشافية جداً . فهناك مكتوب أيضاً : لايجعل أمير البلاد طبقة الكهنوت خيراً مما هى ، ولا يزيد فيها من دون موافقة النبلاء والمقاطعات . لاحظوا الآتى : ولا يغير نظام الحكم فى البلاد .

سوست : أثابت هذا هكذا ؟

فانسن : أريد أن أريكم إياه مكتوبا من مائتين وثلاثمائة سنة مضت .

أهالى : ونطيق مع ذلك الأساقفة الجُدُد ؟ يجب أن يحمينا النبلاء . سنبدأ لاضطرابات .

آخرون : وندع التفتيش يرهبنا ؟

فانسن : الذنب ذنبكم .

الشعب : لايزال لنا إجمنت وأورانيان . كلاهما يعنى بخيرنا .

فانسن : إخوانكم فى فلاندر قد بدأوا العمل الطيب .

سَيْفِنْسِيدَر : أيها الكلب (يضربه) .

آخرون : (يقاومون ويصيحون) هل أنت أيضاً أسبانى ؟

آخر : ماذا ؟ الرجل الشريف ؟

آخر : العالِم (يهجمون على سيفنسيدر) .

المعلم النجار : بحق السماء الزموا الهدوء (آخرون يدخلون فى الشجار) أيها الأهالى . ما خطبكم ؟

(الأولاد تصفر وتقذف بالحجارة وتحرض الكلاب . بعض الأهالى يقفون محملقين . الغوغاء تبادر . آخرون يروحون غير مكترثين ويغدون . وآخرون يسلكون سلوك الأوباش فيصيحون ويهتفون) .

آخرون : لتحيا الحرية ! ولتحيا الامتيازات ! لتحيا الامتيازات ولتحيا الحرية !

(إجمنت يظهر مع حاشيته)

إجمنت : هدوءاً أيها الناس . ما خطبكم ؟ . الزموا السكينة ! افصلوا بعضهم عن بعض .

المعلم النجار : أيها السيد المحترم ! إنك تنزل علينا كملَكٍ من السماء . هدوءاً ! ألا ترون شيئاً ؟ الكونت إجمنت . احترموا الكونت إجمنت .

إجمنت : هنا أيضاً ؟ فيم تشرعون ؟ مواطنون ضد مواطنين . ألا يصدكم عن هذا السخف قرب الوصية الملكية منكم ؟ تفرقوا واذهبوا إلى أعمالكم . إن من سوء الطالع أن تتعطلوا فى أيام العمل . فما الذى أثاركم ؟ (يهدأ الشعب شيئاً فشيئاً ويقف الجميع من حوله) .

المعلم النجار : إنهم يتضاربون من أجل امتيازاتهم .

إجمنت : امتيازاتكم التى تريدون أيضا طائعين أن تهدموها بأيديكم ! ومن أنتم ؟ إنكم تلوحون لى قوما مستقيمين .

المعلم النجار : هذا جهدنا .

إجمنت : حرفتك ؟

المعلم النجار : نجار ومعلم النقابة .

إجمنت : وأنت ؟

سوست : بدّال .

إجمنت : وأنت ؟

يتر : خياط .

إجمنت : أتذكرك . لقد اشتركت فى إعداد بِذات رجالى . اسمك يتر .

يتر : تَفَضَّلْ منكم أن تتذكرونى .

إجمنت : لا أنسى بسهولة من رأيته مرة وتكلمت معه — إن ما عليكم أيها الناس

من واجب المحافظة على الهدوء فأدوه . إن سمعتكم ساءت بما فيه الكفاية . فلا تثيروا الملك أكثر مما أثرتموه . ففى يده القوة آخر الأمر . وكل مواطن مستقيم يكسب قوت يومه بشرفه وجِدِّه ، يستمتع من الحرية بالقسط الذى يحتاج إليه .

المعلم النجار : بلا ريب . وهذا هو مصابنا . إن اللصوص والسكيرين والكسالى — ونرجو حضرتكم عدم المؤاخذة — يثيرون فينا التبرم ، وينقبون من الجوع عن الامتيازات . ويَكْذِبون الطلعةَ وسهلَ التصديق ، ويضرمون نار الاضطرابات فى سبيل قدح من الجعة ، ليشقى بها آلاف الناس ، وهم لا يكترثون . إننا ساهرون على بيوتنا ، حافظون لمتاعنا . ووَدُّوا لو يقصونا عنها بالحرائق .

إجمنت : إنكم تستحقون كل معونة . وإن الإجراءات لتتخذ للضرب على أيدى الأشرار . فاثبتوا فى وجه التعاليم الأجنبية ، ولا تظنوا أنه بالثورة تثبت الامتيازات . الزموا بيوتكم ولا تطاوعوا أنفسكم على الوقوف فى الطرقات فلا يُدْرِكُكُم فيها العفَن . فالعقلاء منكم يستطيعون أن يؤدوا الكثير .

(فى تلك الأثناء يكون معظم المتجمهرين قد تفرقوا)

المعلم النجار : شكراً يا صاحب السعادة . شكراً على الرأى الصائب . كل ما فى وسعنا — (ينصرف إجمونت) سيد مبجل وهولندى صميم ليس فيه شىء أسبانى .

يتر : ليته كان وصياً علينا . إنه يطاع عن طيب نفس .

سوست : إن الملك ليأبى هذا فهو يشغل هذا المنصب بِذَوِيه .

يتر : أرأيت لباسه ؟ إنه مفصل على أحدث طراز . على الطراز الأسبانى .

المعلم النجار : إنه رجل جميل .

يتر : إن له عنقاً يشتهيه السياف .

سوست : أمجنون أنت ؟ ما هذا الخاطر ؟

يتر : إن من الغباوة أن يخطر شىء كهذا بالبال — لكن هذا شأنى دائماً . فإذا رأيت عنقاً جميلا مَدِيداً فكرت فى الحال على الرغم منى : هذا يستحق الضرب . حوادث الإعدام اللعينة ، لا تغرب عن البال . وإذا راح الفتيان يسبحون ورأيت منهم ظهراً عاريا ، تذكرت على الأثر حظ الالوف الذين أُلهبت ظهورُهم بالسياط . وإذا لقيت بطناً

ضخماً تخيلته مشدوداً إلى العمود يُشوى . وبالليل أرتعد فى الحلم من كل جسمى . والسرور عزيز علىّ ولو لساعة واحدة حتى أُوشك أن أنسى كل فكاهة ومزاح . لقد حرقت أمام ناظرى وقريباً منى أجسام مرعبة .

(مسكون اجمنت)

السكرتير جالس إلى مائدة عليها أوراق . ينهض قلقاً

السكرتير : لم يأت بعد . وأنى لأنتظر ساعتين والقلم فى يدى والأوراق أمامى . واليوم على الاخص أحب أن أنصرف فى الميعاد . إنى أتقلب على جمر الانتظار ، وأكاد لا أستطيع البقاء من كثرة ما عِيل صبرى . لقد أمرنى قبل أن ينصرف أن أكون هنا بالدقيقة . وهو مع هذا لا يأتى . إن لدىّ أعمالا كثيرة ، ولن أفرغ منها قبل منتصف الليل . حقاً إنه يغض عن أخطاء المرء أحياناً ، لكنى أوثر أن يكون صارما و يفرج عن المرء فى موعده . عندئذ يستطيع المرء أن يرتب أموره ، لقد انصرف عن الوصية منذ ساعتين ، ومن يعلم من استوقفه فى الطريق .

(يدخل إجمنت)

إجمنت : كيف تجرى الأمور ؟

السكرتير : إنى مستعد وقد حضَّرتُ ثلاث مذكرات .

إجمنت : لقد غبت عنك أكثر مما ينبغى ، ووجهك ينم عن السخط .

السكرتير : إنى أنتظر أوامركم من زمن . وها هى ذى الأوراق .

إجمنت : ستسخط الدونا ألفيرا علىّ حين تسمع أنى أخرتك .

السكرتير : إنكم تمزحون .

إجمنت : لا . لا . لا تعجل . إنك لعلى ذوق سليم ، فهى حسناء و يرضينى كل الرضا أن تكون لك صديقة فى القصر . ماذا تفيد الرسائل .

السكرتير : بضعة أشياء ، قليلها سار .

إجمنت : حسن أن يكون السرور بيننا وأن لا تكون بنا حاجة إلى انتظاره من الخارج . هل أتى كثيرون ؟

السكرتير : عدد كاف ، وثلاثة رسل ينتظرون .

إجمنت : تكلم وا كتفِ بالألزم .

السكرتير : كل شيء لازم .

إجمنت : مسألة ، مسألة . وعَجِّل .

السكرتير : النقيب بريدا يبعث بتقريره عما استجد فى غنت وما حولها ، وقد خمدت الاضطرابات غالباً .

إجمنت : أيكتب أيضاً عن حوادث فردية لازمها سوء الأدب والقحة ؟

السكرتير : أجل . وفى تقريره بضع حوادث أخرى .

إجمنت : اعفنى منها .

السكرتير : قبض أيضاً على ستة نزعوا فى فرفيش صورة مريم ، وهو يسأل أيشنقهم كما فعل بالآخرين ؟

إجمنت : لقد سئمت الشنق فليجلدوا ويخل سبيلهم .

السكرتير : بينهم امرأتان ، أيجلدهما أيضاً ؟

إجمنت : لينذرهما وليطلق سراحهما .

السكرتير : يريد بريدك من رجال بريدا أن يتزوج ، ويأمل النقيب أن ترفضوا طلبه ، فالنساء فى الفرقة من الكثرة بحيث إننا — على قوله — إذا رحلنا لم تسر منا جنود بل قافلة من النور .

إجمنت : ليسمح لهذا أيضاً بما طلب فهو شاب جميل الطلعة . وقد توسل إلىّ قبل رحيلى . ولكن لا يسمح بعد الآن لأحد . وإن عزّ علىّ أن أحرم هؤلاء المساكين خير تسلياتهم . فقد كفاهم ما يرهقهم .

السكرتير : اثنان من رجالكم ، سيتر وهارت ، عبثا ببنت صاحب خان . استفردا بها ، ولم تقو الفتاة على دفع أذاهما .

إجمنت : إن كانت فتاة شريفة فاستخدما معها القوة فليجلدهما بالعصا ثلاثة أيام متتالية ، فإذا كانا يملكان شيئاً أخذ منهما ما يكفى الفتاة جهازاً .

السكرتير : مر أحد الوعاظ الأجانب من كومينوس خفية فا كتشف أمره ، وقد أقسم أنه كان على وشك المضى إلى فرنسا ، والأمر الصادر يقضى بضرب عنقه .

إجمنت : ليذهبوا به فى سكون إلى الحدود وليؤكدوا له أنه إن عاد فلن ينطلق هكذا .

السكرتير : رسالة من جابيكم : يكتب أن الدخل ضئيل ، وأنه يصعب عليه أن يدبر المبلغ المطلوب فى الأسبوع المضروب ، فقد أشاعت القلاقل الاضطراب فى كل شىء .

إجمنت : يجب أن يرسل المال . وعليه أن يفكر كيف يدبره .

السكرتير : يقول إنه سيبذل غاية الجهد ، وإنه يريد أخيراً أن يقاضى ريمون المدين لكم من أمد طويل ، وأن يعمل على القبض عليه .

إجمنت : لقد وعد هذا بالدفع .

السكرتير : لقد استمهله آخر مرة أسبوعين .

إجمنت : فليمهله أسبوعين آخرين ، وليقاضه بعد ذلك .

السكرتير : تحسنون صنعا ، فليس ما به فقراً ، بل سوء نية وسيهتم للأمر بلا شك حين يرى أنكم لا تمزحون ، ويقول الجابى غير ذلك إنه يرى أن يحبس عن الجندى المسن والأرمل والبضعة الآخرين المرتب الذى تجرونه عليهم نصف شهر لينظر الأمر فى خلال ذلك . وعليهم أن يدبروا أمرهم .

إجمنت : أى أمر يدبرون ؟ إن هؤلاء أحوجُ إلى المال منى . فليبق الشىء على حاله .

السكرتير : من أين إذن تأمرونه بتدبير المال ؟

إجمنت : ليفكر هو فى ذلك ، فقد أبنّاه له فى الرسالة السابقة .

السكرتير : ومن ثم يرتئى ما ارتأى .

إجمنت : ارتياءاته هذه لا تصلح ، فليفكر فى غيرها . وليقترح ما يقبل ، وليدبر المال قبل كل شىء .

السكرتير : لقد أعدت رسالة الكونت أوليفا ثانية إلى هنا . فلتغفروا لى تذكيركم بها ، فالشيخ يستحق قبل غيره جوابا مفصلا ، وتريدون أن تكتبوا إليه بنفسكم ، حقاً أنه يحبكم كأب .

إجمنت : إنى لا يتسع وقتى لذلك ، والكتابة عندى أبغَضُ ما أبغض . إنك تقلد خطى تقليداً دقيقاً ، فاكتب إليه باسمى . إنى أنتظر أورانيان فلا أستطيع الكتابة . وأتمنى نفسى أن تكتب إليه ما يهدئ روعه ويبدد مخاوفه .

السكرتير : أدلوا إلىّ برأيكم على التقريب ، فإنى أريد أن أنشئ الرد حالا وأعرضه عليكم ، وسأكتبه بخط لا تشك المحكمة فى أنه خطكم .

إجمنت : أعطنى الرسالة (بعد أن يطلع عليها) يا لك من شيخ طيب شريف ، أكنت فى شبابك كثير الوساوس إلى هذا الحد ؟ ألم تتسلق سوراً ؟ ألزمتَ فى المعركة المكان الذى تقضى به الحكمة ؟ فى المؤخرة ؟ يا لك من قلق مخلص ، إنه يريد حياتى وهنائى ، ولا يشعر بأن الذى يحيا مَعْنِيًا بسلامته ، إنما هو ميت بين الأحياء — أكتب إليه بأن يطمئن ويريح باله ، فإنى أسلك ما ينبغى علىّ سلوكه ، وسأحمى نفسى . وعليه أن يستخدم نفوذه فى البلاط من أجلى ويوقن بحمدى وشكرى .

السكرتير : لا شىء غير هذا ؟ إنه ينتظر مزيداً .

إجمنت : ماذا أستطيع أن أقول أكثر من هذا . أتريد أن تزيد فى العبارة فافعل إن شئت . فالأمر يدور حول نقطة واحدة لا ثانية لها . أن أعيش كما لا أحب . أن أعيش . أن كَوْنِى مَرِحًا ، أستخف بالأمور ، وأحيا حياة من لا يبالى ، هو ما أستشعر فيه الهناء . ولست مستبدلا به سلامة كالتى تُطلب فى لَحْدِ الأموات . ليس فى عروقى قطرة دم لذلك الأسلوب الذى يعيش الأسبان عليه . ولا تحدونى رغبة فى أن أغنى على لَيْلَى البلاط ، وأسير سيرته الجديدة فى الحذر . أفهل أعيش لأجعل تفكيرى فى الحياة ؟ أينبغى أن لا أنْعُمَ باللحظة الراهنة لأستوثق من الآتية ، ثم أقضى هذه أيضا فى الهموم والهواجس ؟

السكرتير : عفوا يا سيدى . لا تكن قاسيا شديدا على الرجل الطيب ، فأنت فى العادة كريم مع الجميع . املوا علىّ كلمة طيبة تهدئ من روع الصديق النبيل ! وانظروا كيف يترفق ، وكيف يقربكم فى هينه .

إجمنت : ومع ذلك فلا يمس دائما إلا هذا الوتر . إنه يعلم من قديم مبلغ كراهيتى لهذه التحذيرات . إنها تُرْبِكُ فحسب ولا تعين . وإذا كنت أتجول بالليل وأنا نائم ، وأسير على قمة سطح خطر أمِنَ البرَّ أن تنادينى باسمى وتحذرنى ، وتوقظنى ، وتقتلنى ؟ فليمض كل فى سبيله وليحْمِ نفسه على أسلوبه .

السكرتير : اعلم أن الخوف ليس من شيمتكم . لكن من يعرفكم ويحبكم —

إجمنت : (ينظر فى الرسالة) ها هوذا يعيد الترهات القديمة . ما فعلنا ذات مساء فى

حميّة السمر ونشوة الخمر ، وما تحدثنا به إذ ذاك ، وما استخلصه الناس فى كافة نواحى المملكة ، وما تواتر فيها من نتائج وأدلة — فليكن . لقد وشّينا أكمام خدمنا بقلنسوة المهرج ذات الجلاجل . ثم حولنا هذا الوشى الجنونى إلى حزمة من السهام . وهى رمز خطر لكل الذين يريدون أن يستنتجوا شيئاً من لا شىء . لقد حملنا ووضعنا هذه الحماقة أو تلك فى لحظة مزاح . أفتُسأل عن عصبة نبيلة بأسرها تحمل مزاود المتسولين وأسماء اختارتها لأنفسها ، حين تُذكّر الملك بواجبه فى مذلة ساخرة ؟ أنحن مسئولون — عن ماذا غير هذا ؟ أهزَرُ المرافع كالخيانة العظمى سواء بسواء ؟ أتُنفَسُ علينا تلك الخرق الملونة القصيرة التى أضفتها جرأة الشباب والمخيلة المنتشية على نقط الضعف فى حياتنا ؟ وإذا كنتم تنظرون إلى الحياة هذه النظرة الجدية ، وتغلون فيها هذا الغلوّ فما هى هذه الحياة ؟ إذا كان لا يصبح علينا الصباح بمسرات جديدة ، ولا يقبل المساء بأمل فى لهو ، أتستحق هذه الحياة لبساً وخلعا ؟ أتطلع علىّ الشمس لأفكر فيما كان أمس ؟ وللنظر فى شىء لا يحزز ؟ وتقييد ما ليس يقيد من مصير يوم آت ؟ اعفنى من هذه التأملات فأولى بها التلاميذ ورجال البلاط ، فلهؤلاء أن يفكروا ويدبروا ، ويجولوا ويتسللوا ، ويبلغوا ما يستطيعون ، وينتهزوا ما يستطيعون — فإن وسعك أن تأخذ من هذا كله شيئاً من دون أن تجعل الرسالة سفراً فأنت وشأنك . فإن الأمر ليلوح للشيخ الطيب أجل خطراً . وهكذا يضغط الصديق الذى أمسك بيدنا طويلا ضغطة أشد على هذه اليد حين يريد تركها .

السكرتير : عفواً . إن الراجل ليتملكه الدوار من مر الراكب الخاطف .

إجمنت : كفى يا بنى ولا تزد . إن جياد الشمس التى يطلقها الزمن تمرق بالمركبة الخفيفة التى تحمل مصائرنا كما لو كانت أرواح غير مرئية تلهبها بالسياط . وليس علينا إلا أن نمسك بالأعنة فى رباطة جأش لنحوّل العجل تارة إلى اليمين وتارة إلى اليسار عن حجر هنا ، وعثرة هناك . ثم إلى أين تذهب هذه المركبة ؟ من يعلم ؟ ليكاد المرء لا يذكر من أين أتى .

السكرتير : سيدى ! سيدى !

إجمنت : إنى أقف عالياً . وأستطيع بل يجب أن أصعد فوق ما صعدت . فإنى لأشعر من نفسى بالأمل والجرأة والقوة . ولم أبلغ بعد القمة . فإن بلغتها يوماً ، فأريد أن أقف عندها ثابتاً لا يساورنى خوف . وإن سقطت فلتقذف بى إلى الأعماق صاعقة أو عاصفة أو قدم زالة ،

فهنالك أرقد مع آلاف غيرى . إننى لم أزدر يوما أن أحتكم ورفاق الحرب الأخيار إلى الدم من أجل مغنم ضئيل . أفأضن حين يكون الأمر أمر الحياة بأسرها وقيمتها الحرة ؟

السكرتير : سيدى . إنك لا تعلم بأى كلام نطقت . فليحفظك الله .

إجمنت : اجمع أوراقك . فأورانيان آت . وأعد الألزم لينصرف الرسل قبل أن توصد أبواب المدينة . وما تبقى فالوقت متسع له . ودع كتابى إلى الكونت إلى الغد . ولا تَفُتْك زيارة ألفيرا . وقدم إليها تحياتى — تسقّط كيف حال الوصية . فإنه ليقال إنها ليست على ما يرام و إن أخفت ذلك (ينصرف السكرتير) .

(يأتى أورانيان)

إجمنت : مرحباً بك يا أورانيان ، يلوح لى أن ثمة ما يشغلك .

أورانيان : ماذا تقول فى حديثنا مع الوصية ؟

إجمنت : لم أجد فى استقبالها إيانا شيئاً غير مألوف . وقد رأيتها كثيراً على هذه الحال . وقد لاحت لى على غير ما يرام .

أورانيان : ألم تلاحظ أنها كانت أكثر تحفظا من المعتاد . أرادت أولا فى هدوء أن تقر مسلكنا حيال الثورة الشعبية الجديدة . ثم أبدت بعد ذلك ما يلقى على هذا المسلك ضوءاً كاذبا . ثم حولت الحديث إلى محاضرتها القديمة المألوفة : عن سلوكها الطيب الودود ، وصداقتها لنا نحن أهالى الأراضى الواطئة ، وعن أن هذا السلوك وهذه الصداقة لم يقدرا التقدير الكافى ، ولم يلقيا إلا استخفافا ، حتى لتأبى الأمور أن تنتهى إلى الخاتمة المرومة ، وحتى ليدركها الكلال آخر الأمر ، ويضطر الملك إلى إتخاذ إجراءات أخرى . أفلم تسمع ذلك ؟

إجمنت : لم أسمعه كله . فقد كنت فى تلك الأثناء أفكر فى أمر آخر . إنها امرأة أيها الطيب أورانيان . وهم يودون دائماً أن يستسلم كل شىء لنيرها اللين ، وأن يخلع لها كل هرقل جلد الأسد ، وأن يزداد بلاطها النسوى . ولأنها تضمر السلم يراد بكلمة طيبة أن يسكن الاختمار الذى يجيش به الشعب ، والعاصفة التى يثيرها منافسون أقوياء بعضهم على بعض ، فتتآلف تحت قدميها أشد العناصر تقاطعاً ، ويسود بينها الوفاق بعد الشقاق . هذا هو أمرها . وإذ هى لا تستطيع له حولا ، لا تجد غير أن تزداد سخطاً ، وأن تشكو من الجحود والخرق ، وأن تتوعد بالويل والثبور وعظائم الأمور ، وأن تهدد بأنها تريد الرحيل .

أورانيان : ألا تعتقد أنها هذه المرة تنفذ تهديدها ؟

إجمنت : أبداً . فكم رأيتها على أُهْبَة السفر . وإلى أين تريد ؟ إنها هنا حاكمة ، ملكة . أفتظنها تطيق أن تقضى فى بلاط أخيها أياماً عديمة الشأن ؟ أو تمضى إلى إيطاليا فتضنى هناك فى حياة عائلية عتيقة ؟

أورانيان : إنك لا تراها أهلا لهذا التصميم ، لأنك رأيتها تتردد ، ورأيتها تتراجع . ومع ذلك فهى مصممة . تدفعها إلى إتخاذ القرار الذى ترددت فيه طويلا ظروف جديدة . وإذا رحلت ؟ وابتعث الملك غيرها ؟

إجمنت : يأتى غيرها ويُشغَل مثلما شُغلت . يأتى بخطط ومشاريع وأفكار ضخمة لإصلاح كل شىء . يبدأ اليوم بهذه الصغيرة ، وغداً بتلك . ويجد بعد غد هذه العقبة . ويقضى شهراً فى مشروعات ، وآخر فى السخط على خطط حابطة ، وسنة مهموماً من جراء إقليم واحد . هو أيضاً سيضيع وقته سدى ، ويدور رأسه ، وتبقى الأمور كما كانت من قبل . فبدلا من أن يقطع بحاراً ، ويتبع منهاجا ، يحمد الله أن جنب سفينته الصخر ، فى العاصفة الهوجاء .

أورانيان : فإذا كان قد نُصح للملك بمحاولة ما .

إجمنت : وهى ؟

أورانيان : أن يرى ما يستطيع الجسم بلا رأس .

إجمنت : كيف ؟

أورانيان : إجمنت ! إننى أُفكر من سنين طويلة فى أحوال الناس من كل وجوهها . ولا أنقطع عن الإنكباب على مثل رقعة الشطرنج ، لا استخف بأية لعبة للخصم . وكما تجذب الطبيعة الخالىَ من الناس وتحمله على الاشتغال بأسرارها ومحاولة اكتناهها ، كذلك أنا ، كنت أرى من واجبى ومن وظيفة الأمير أن يتعرف أفكار الأحزاب ونصائحها جميعاً . وعندى مايجعلنى أخشى الانفجار . فالملك قد ظل طويلا يعالج الأمور ، طبقاً لقواعدَ مَوْضُوعَة . وهو يرى أنها لم تُغْنِهِ . فهل ثمة ما هو أرجح من أن يحاول مسلكا آخر ؟

إجمنت : لا أعتقد . فالمرء إن بلغ من الكبر ما بلغ ، وحاول ما حاول ، واستعصى عليه النظام فلم يرده إلى نصابه ، كفّ أخيراً وزهد .

أورانيان : بقى شىء لم يحاوله بعد .

إجمنت : وهو ؟

أورانيان : أن يُبْقِى على الشعب ، ويَسحقَ أُمراءه .

إجمنت : ما أكثر الذين قد خشوا ذلك ، فلا يُهمك .

أورانيان : كان فى مبدئه هما ، فلم يلبث أن بات حدساً ، فيقينا أخيراً .

إجمنت : وهل للملك من يخلص له أكثر منا ؟

أورانيان : نحن نخدمه على طريقتنا ، ونستطيع فيما بيننا أن نعترف بأننا نعرف كيف نوازن بين حقوق الملك وحقوقنا .

إجمنت : ومن يُغْفِل ذلك ؟ نحن رعاياه ، ونُعاونه على كل ما هو من حقه .

أورانيان : و إذا أدعى أكثر مما له ، وزعم ما نرى فيه نحن صونَ حقوقنا خروجا عليه ؟

إجمنت : سيكون فى استطاعتنا أن ندافع عن أنفسنا . ليجمع فرسان الفروة الذهبية وليَقْضُوا بيننا .

أورانيان : و إذا حُكم قبل التحقيق ، وعُوقب قبل الحكم ؟

إجمنت : ظلم لن يقترفه فيليب أبداً . ونزق أُجِلُّهُ ومستشاريه عنه .

أورانيان : و إذا باتوا ظالمين وحَمْقَى ؟

إجمنت : لا ياورانيان . محال . من الذى يجرؤ أن يضع يده علينا ؟ — إن اعتقالنا ليكونن عملا خاسراً ، لا نفع فيه . لا . إنهم لايجسرون على رفع لواء الطغيان إلى هذا الحد . إن الريح التى تحمل هذا النبأ ستشعل ناراً هائلة . ثم إلى أى مدى يذهبون ؟ إن محاكمتنا والحكمَ علينا لأيملكهما الملك . إن رابطة مخيفة توحد إذ ذاك بين صفوف الشعب فى لحظة . إن البغضاء والانفصال إلى الأبد عن الاسم الأسبانى ليكونان المغبة التى تنجم فى عُنف .

أورانيان : حين يندلع اللهيب نكون فى القبر ، وتجرى دماء أعدائنا كفارة فارغة . لنفكر يا إجمنت .

إجمنت : لكنه كيف تكون محاولتهم ؟

أورانيان : ألبا* فى الطريق .

(*) فرديناند دوق ألبا القائد والسياسى الأسبانى الشهير . ولد سنة ١٥٠٨ فى طوليدو من أسرة =

إجمنت : لا أُصدق .

أورانيان : وأنا به عليم .

إجمنت : لم يَبْدُ على الوصية أنها تعلم .

أورانيان : وهذا أدعى لأن يثبت يقيني . ستخلى له الوصية المكان . إنى أعرف شهوة القتل فيه . وهو آت فى جيش .

إجمنت : لإرهاق المقاطعات من جديد ؟ سينبو الشعب فى أيديهم نُبُوًّا عظيما .

أورانيان : سيستوثقون من الرؤوس .

إجمنت : لا . لا .

أورانيان : ليذهب كل منا إلى مقاطعته . فهناك نستزيد من قوتنا . ولن يبدأنا بعداء صريح .

إجمنت : أفلا يجب أن نستقبله حين يأتى .

أورانيان : لنتلكأ .

إجمنت : و إذا طلبنا عند وصوله باسم الملك ؟

أورانيان : نتلمس المعاذير .

إجمنت : فإذا ألح ؟

أورانيان : اعتذرنا .

= كبيرة ، ودخل الجيش الأسبانى فى السادسة عشرة من عمره ، فأبلى فى حروبه مع الفرنسيين والأتراك والمغاربة فى تونس والجزائر بلاء حسناً ، وامتاز بالشجاعة والتصميم ورباطة الجيش واليقظة إلى حد عظيم حتى صار جنرالا فى السادسة والعشرين . وقد تبع شارلكان إلى ألمانيا ، فكان فيها أقسى مضطهد للبروتستانت ، وبعث به فيليب الثانى الذى تقدم ذكره إلى الأراضى الواطئة سنة ١٥٦٧ ليقمع حركة المذهب الجديد ، فظهر هناك على رأس جيش من خيرة جنود الأسبان مزود بعدد كبير من الرهبان المتعصبين ، وطغى ما شاء له الطغيان حتى بلغ عدد من أمر بإعدامهم فى سنى حكمه الست ١٨,٠٠٠ نفس عدا الزعيم إجمنت والكونت هورن وغيرهما من محبى الوطن . فثار عليه سكان الأراضى الواطئة وكان ما كان مما ورد ذكره فى الكلام عن الدوق أورانيان . ولما يئس ألبا من الانتصار على المجاهدين الوطنيين قدم استقالته وعاد إلى مدريد . وقد كانت البرتغال مسرحا آخر لقسوته ، إذ غزاها سنة ١٥٨٠ ، ونكل بأهلها كما نكل بالهولنديين . ومات سنة ١٥٨٢ ، وهو فاقد ثقة مولاه . وقد كان دوق ألبا شخصية فذة لم تضعف الشيخوخة شجاعة الشباب وقوته فيه ؛ كان طويل القامة نفوراً متكبراً ، تثير جهامة وجهه ووقع السياط من صوته الرعب والكراهية اللذين كان الخوف من تعصبه الدينى يزيد أثرهما فى النفوس .

إجمنت : وإذا أصر ؟

أورانيان : كان هذا أدعى إلى التخلف .

إجمنت : فيناصبنا العداء ، ونكون المتمردين . أورانيان ! لا يضلك بُعد النظر . أعلمُ أن الخوف لا يلين قناتك . ففكر فى خطوتك .

أورانيان : قد فكرت فيها .

إجمنت : فكر فيما لو أخطأت التقدير . عم تكون مسئولا ؟ عن أفدح حرب يمكن أن تلم ببلاد . إن رفضك هو الإشارة التى تدعو المقاطعات إلى حمل السلاح فى الحال . هو الذى يبرر كل قسوة ، تتلمس لها إسبانيا الحجج من أمد بعيد . أن ما تعبنا طويلا فى تهدئته تريد أنت أن تثيره ثورة جامحة بإيماءة واحدة . فكر فى المدن ، فى النبلاء ، فى الشعب ، فى التجارة ، فى الزراعة فى الصناعات . تصور الدمارَ والهلاك . إن الجندى ليرى قرينه فى حومة الوغى يسقط إلى جانبه ، فلا يحرك ساكنا . لكن جثث الأهلين والاطفال والعذارى ستمر بك طافية على وجه الماء منحدرة مع النهر . فتقف تتأملها يتملكك الرعب . ولا تعود تعرف قضية من تناصر ، بعد إذ يفنى هؤلاء الذين حملت السلاح دفاعا عن حريتهم . وكيف تكون حالك إذا لم تكن لك ندحة عن أن تقول فى نفسك : من أجل سلامتى قد حملت السلاح .

أورانيان : لسنا فى الناس أفرادا يا إجمنت . فإذا صح أن نضحى بأنفسنا فى سبيل الألوف ، جاز كذلك أن نَضِنَّ بأنفسنا فى سبيل الالوف .

إجمنت : إن من يضن بنفسه لا يسلم من الإرتياب فى نفسه .

أورانيان : إن من يثق بنفسه يستطيع يقينا أن يتقدم وأن يتأخر .

إجمنت : الشر الذى نخشاه سينجم على التحقيق من عملك .

أورانيان : الحكمة والجرأة تقضيان بمجابهة الشر الذى لا مفر منه .

إجمنت : مثل هذا الخطر العظيم لا يخلو من بارقة أمل .

أورانيان : لم يعد لنا فيه موضع لأخفت قدم . والهوة أمامنا رأساً .

إجمنت : أرِضا الملك عزيز إلى هذا الحد ؟

أورانيان : ليس عزيزا ، ولكنه غير مأمون .

إجمنت : بحق السماء . إنك تسيء إليه . ولست أطيق أن يسوء الرأى فيه إلى هذا الحد . فهو ابن شارل . وهو لا ينحط إلى عمل حقير .

أورانيان : الملوك لا ينحطون .

إجمنت : ينبغى أن يُعرف حق المعرفة .

أورانيان : هذه المعرفة نفسها تنهانا عن أن نتعرض لتجربة خطرة .

إجمنت : لا خطر فى تجربة يقدم عليها المرء رابط الجأش .

أورانيان : إنك متهيج يا إجمنت .

إجمنت : يجب أن أرى الأمور بعينى .

أورانيان : ليتك تراها هذه المرة بعينى أنا . أيها الصديق ! تظن أنك ترى لأن عينيك مفتوحتان . أنا ذاهب . وانتظر أنت قدوم ألبا . والله معك . قد ينجيك امتناعى قد يظن التنين أن ليس من يقنصه ، إذا لم يبتلعنا معا . وربما تردد ليجعل ضربته أسدّ وربما رأيت الأمور فى غضون ذلك على حقيقتها . عندئذ أسرع . أسرع . وانج بنفسك ، — وداعا — لا تدع شيئا يغيب عنك . عدد القادمين من جنده ، كيفية احتلاله المدينة ، ما يبقى للوصاية من سلطة ، رأى أصدقائك . مدنى بمعلوماتك — إجمنت — .

إجمنت : ماذا تريد ؟

أورانيان : (يتناول يده) اقتنع . واذهب معى .

إجمنت : كيف . تبكى يا أورانيان ؟

أورانيان : أندب فقيدا ، ولا تخوننى الرجولة .

إجمنت : أتحسبنى مفقودا ؟

أورانيان : إنك لكذلك . فتدبر . ليست أمامك سوى مهلة وجيزة . وداعا (يخرج) .

إجمنت : (وحده) لم يك يخطر لى ببال ، أن لأفكار الغير مثل هذا التأثير علينا . إن هذا الرجل قد نقل إلىّ همومه . إليك عنى — هذه قطرة دم غريبة فى دمى . أيتها الطبيعة الطيبة انفها عنى . فلا تزال ثمة وسيلة ودية لإزالة التغضن عن جبينى وطرد الوساوس من رأسى .

الفصل الثالث

قصر الوصية

مارغريت دى بارما

الوصية : كان يجب أن أحزر ذلك . أن المرء المُعَنَّى المكدود ليظن دائماً أنه قد أفرغ قصارى جهده . أما المتفرج الآمر من بعيد فيحسب أنه يطلب ممكناً ككل الممكنات آه من الملوك — لم أكن أظن أن الأمر يمكن أن يضايقنى إلى هذا الحد أنه جميل أن تحكم وأما أن تنزل عن الحكم ؟ — لا أعلم كيف وسع هذا أبى . ولكنى أريده .

(يظهر مكيافيل عن كثب)

الوصية : اقترب يا مكياڤيل . إنى أفكر هنا فى رسالة أخى .

مكياڤيل : أيجوز لى أن أعلم فحواها ؟

الوصية : التفات رقيق نحوى . وعناية على قدره ، بولاياته . يثنى على ما أبديت من ثبات وجد وأمانة فى المحافظة على حقوق جلالته فى هذه البلاد . ويأسف إذ يسبب لى الشعب الشكس المتاعب . إنه مقنع كل الاقتناع ومن أعماق النفس بأصالة رأيى و بصرى بالأمور ، راض كل الرضا عن سلوكى الحكيم . إنه لا معدى لى عن القول بأن الرسالة أرق من أن يكتبها ملك . ولكنها من أخ معقولة .

مكياڤيل : ليست هذه أول مرة يعرب لك عن رضاه الحق .

الوصية : ولكنها أول مرة يتخذ فيها الأمر شكل الخطابة .

مكياڤيل : لا أفهم سموك .

الوصية : ستفهم . — إنه يرى بعد هذه المقدمة أننى هنا ، وإنا بلا حول ولا قوة ولاجيش صغير ، ستصعب مهمتى دائماً . فنحن لم نحسن ، على قوله ، صنعا حين سحبنا جنودنا من الأقاليم عقب شكاوى الأهالى . فحاميته فى رأيه ، تمنع الأهلين من الجموح والثورة حين تنيخ بكلكلها على ظهورهم .

مكياڤيل : هذا مثير للنفوس إلى أقصى حد .

الوصية : بيد أن الملك يرى — أتسمع — يرى الملك أن قائداً حازماً ، قائداً لا يكترث للمنطق ، يستطيع قريباً أن يقف الشعب والنبلاء ، وأهل الحضر وأهل الريف ، عند حدهم ، و يرسل لذلك الدوق ألبا فى صحبة جيش قوى .

مكياڤيل : ألبا ؟

الوصية : أمندهش أنت ؟

مكياڤيل : تقولين : يرسل ؟ ولعله يسألك : أيرسل ؟

الوصية : إنه لا يسأل . إنه يرسل .

مكياڤيل : وهكذا يكون فى خدمتك محارب مجرب .

الوصية : فى خدمتى ؟ لا تداج يا مكياڤيل .

مكياڤيل : أردت أن لا أسْبِقَك .

الوصية : وددت لو أستطيع المداجاة . إنى متألمة . إنى حزينة جداً . كنت أوثر أن يصارحنى أخى برأيه ، لا أن يوقع رسائل رسمية ينشئها وزير .

مكياڤيل : أما كان الأخلق أن يكون المرء بصيراً — !

الوصية : إنى أعرفهم حق المعرفة . يحبون النظافة والكنس . ولأنهم لا ينظفون بأيديهم ولا يكنسون ، فكل من تقدم إليهم و بيده مكنسة يحوز ثقتهم . يخيل إلىّ أنى أتمثل الملك ومجلسه فوق هذه السجاده .

مكياڤيل : إلى هذا الحد ؟

الوصية : لا يغيب عنى شىء . ففى المجلس أناس طيبون . رودريق الشريف المحنك المعتدل الذى لا يطمح إلى أعلى مما ينبغى ، ولا يترك مع ذلك شيئاً يسقط . وألنزو الصريح . والمجدّ فرينيدا . والثابت لاس برجاس . وغيرهم ممن هم خلقاء أن يشايعوا الحزب الطيب إذا أوتى السلطان . بيد أنه فى جملة المجلس ذلك الطوليدى الغائر العينين ، ذو الجبين الصلد ، والنظره العميقة المضطرمة . يهمهم بين أسنانه كلاماً عن طيبة النساء ، والتساهل فى غير موضعه ، وعن كراهية المرأة لركوب الخيل الجموحة ، و إنها لا تحسن القيام على الخيل إطلاقا ، وما شا كل ذلك مما كنت أضطر إلى سماعه من أفواه الساسة فيما سلف من الزمان .

مكياڤيل : لقد اخترتِ للصورة ألوانا مطابقة .

الوصية : اعترف يا مكياڤيل أنه ليس فى مجموعة الألوان التى يمكن أن أرسم منها ، ما هو أشد فى سمرته صفرة ، ولا أقرب فى صفرته إلى القتامة من لون وجه ألبا ، ومن اللون الذى يخلعه ألبا على الأشياء . كلٌّ عنده آثم فى حق الله ، عائب فى ذات الملك . وهذا مبرر عنده لسحق الجميع ، وللشد إلى العمود ، وللتمزيق والحرق . — إن الصالح الذى عملته هنا يبدو من بعيد هباء . ذلك لأنه صالح . — إنه سيتشبث بكل جرم فات وسيذكّر بكل اضطراب سكن ، فيبدو كل شىء لعينى الملك جياشا . سيذكر بالعصيان ، والثورة ، والنزق ، حتى ليخال أهل البلاد يأكل بعضهم بعضا . بينا الأمر لم يعدُ عندنا قحة عابرة من شعب خشن قد نسيناها من زمن . وهو سيقسو قلبه بالضغينة على الشعب المسكين . ويلوح له الشعب منفرا كما تلوح الوحوش والغيلان فيعمل النار والسيف فيما حوله ، ويحسب أنه بهذا يروض الناس .

مكياڤيل : يلوح لى أن سموك تشتدين أكثر مما ينبغى ، وتغلين فى التشاؤم . أوَ لا تظلين وصية ؟

الوصية : إنى عليمة بما هنالك فسيحمل إلىّ تعليمات — وقد قضيت فى شئون الدولة عمرا علمنى كيف يزحزح المرء غيره عن مركزه من دون أن يشغله — سيحمل معه أولا أمرا غامضا سىء القصد . سيبطش يمينا وشمالا لأن القوة بيده ، فإذا شكوت تذرع بأمر سرى . فإذا طلبت الاطلاع عليه سوّف وماطل . فإذا أصررت أرانى ورقة تشتمل على شىء آخر كلية . فإذا لم أهدأ ولم أفعل شيئا غير أنى تكلمت — يكون فى تلك الأثناء قد فعل ما خشيته . وأغفل ما تمنيته .

مكياڤيل : وَدِدْتُ لو أستطيع معارضة سموك .

الوصية : إن ما هدأته بصبر لا مثيل له ، سيثيره هو ثانية بقسوة وغشم . وسأرى بعينى ما خلقته ضائعا ؛ وتبعته هو عن هذا ستقع فوق ذلك علىّ .

مكياڤيل : انتظرى حتى يقعَ الأمر يا صاحبة السمو .

الوصية : أن لى من ضبط النفس ما يلزمنى الهدوء . فليأت . فسأخلى له مكانى على خير وجه ، قبل أن يزحزحنى عنه .

مكياڤيل : تتخذين هذه الخطوة الهامة بهذه السرعة ؟

الوصية : ولكن بأصعب مما تظن . فمن اعتاد الحكم ، ومن أُلِفَ أن تكون مصائر الألوف فى يده كل يوم ، ينزل عن العرش كما ينزل إلى القبر . لكن هذا خير من أن تعيش طيفا بين الأحياء ، وأن يحملك الجاه الأجوف على التشبث بمكان آل إلى غيرك فهو يتبوؤه وينعم به .

مسكن كلارا

كلارا . أمها

الأم : إن حبا كحب براكنبورغ لم أره عمرى . وأظن أن مثله لا يكون إلا فى الأساطير .

كلارا : (تغدو وتروح فى الحجرة وتنغم أغنية بين شفتيها)

سعيدة وحدها
نفسك إذ تحب

الأم : أنه يحزر صلتك بأجمنت . وأحسبه يتزوج منك مع ذلك إذا أنت شئت أن تتوددى إليه بعض الشىء .

كلارا : (تغنى)

مفعمة بالغبطة غصّانةٌ بالألم
تنهبها الأفكار
مشتاقة ملهوفة
من خشية الأقدار
تبلغ فى تهليلها أعنة السماء
وتلقى فى همومها غاية العناء
سعيدة وحدها
نفسك إذ تحب

الأم : دعى هذا الهراء .

كلارا : كُفِّى عن الملام . إنها أغنية قوية . وقد هَدْهَدْتُ بها أحيانا طفلا كبيرا لينام

الأم : ليس فى رأسك سوى حبك فلا تنسَىْ كل شىء من أجل هذا الشىء الواحد . خليق بك أن تستبقى براكنبورغ موضع إكرامك . هذا ما أقوله لك . ففى وسعه أن يسعدك مرة أخرى .

كلارا : هو ؟

الأم : بلى . فسيأتى زمن . — إنكم أيها الأطفال لا تستبينون شيئا قبل وقوعه ، ولا تحفلون بتجاربنا . الشباب والحب الجميل إلى انتهاء ككل شىء . وسيأتى وقت يحمد المرء فيه ربه ، إن استطاع أن يجد مكانا يتوارى فيه .

كلارا : (ترتعد وتصمت ثم تهب) . أماه ! دعى الوقتَ يأتى والحين يحين ، فالتفكير فيه قبل حينه مخيف . وإذا أتى ، وإذا وجب — عندئذ — فعلنا ما فى استطاعتنا — إجمنت ! أأستغنى عنك ؟ — (تبكى) لا . مستحيل ! مستحيل !

(يدخل إجمنت فى مطرف الركوب وقبعته مضغوطة على وجهه)

إجمنت : كلارا !

كلارا : (تصرخ متراجعة) : إجمنت ! (تبادر إليه) إجمنت ! (تعانقه وتستند إليه) يا حبيبى الطيب الحلو . هل أتيت ؟ هل أنت هنا ؟

إجمنت : كيف أمسيتِ أيتها الأم .

الأم : حياك الله أيها السيد النبيل . لقد كادت صغيرتى تذوب لطول غيابك . ولم يكن لها طيلة النهار حديث أو غناء إلاّ عنك .

إجمنت : ستقدمين لى طعام العشاء ؟

الأم : شرف هو أكثر مما نستحق ، لو أن عندنا ما نقدمه .

كلارا : بلا ريب . فلينعم بالك يا أماه . فقد قدرت كل شىء وأعددت شيئا . فلا تبوحى به يا أماه ؟

الأم : شيئاً لا يستحق الذكر .

كلارا : انتظرا ! وعندئذ أفكر : حين يكون عندى لا أحس جوعا ، وإذاً لابد ألاّ تكون شهيته عظيمة حين أكون عنده .

إجمنت : أتظنين ؟ (تضرب كلارا الأرض بقدمها وتدير له ظهرها على الرغم منها) ما بكِ ؟

كلارا : ما بالك اليوم بادى الفتور ؟ فإنك لم تحاول تقبيلى . ولِمَ تلف ذراعيك بعباءتك كالوليد ؟ غير جميل بالجندى أو الحبيب أن يبقى ذراعيه ملفوفتين .

إجمنت : أحيانا ، يا حبيبتى ، أحيانا . حين يتربص الجندى بعدوه ويريد أن يختله ، يستجمع لذلك نفسه ، ويحتوى جسمه فى ذراعيه ، ويبعث ضربته . . . أما العاشق — .

الأم : ألا تجلسْ ؟ ألا تأخذ راحتك ؟ إنى ذاهبة إلى المطبخ ، فكلارا لا تفكر فى شىء وأنتما هنا . فلا تؤاخذنى .

إجمنت : إرادتك الحسنة خير ما يجعل الطعام شهياً (تذهب الأم) .

كلارا : وحبى إذن ماذا يصنع ؟

إجمنت : كلّ ما تشتهين .

كلارا : قارنه إن استطعت .

إجمنت : قبل كل شىء — (يخلع عباءته فيبدو فى لباس فاخر) .

كلارا : ما أبدع ! !

إجمنت : الآن أطلقت ذراعىّ (يضمها إلى صدره) .

كلارا : خل هذا . فأنت تتلف نفسك (تتراجع) ما أفخر ثيابك ! لايجوز لى أن أقربك

إجمنت : أراضية أنت ؟ لقد وعدتك أن آتيك مرة فى لباس الأسبان .

كلارا : من ذلك الحين كففت عن أن أسألك هذا . فقد ظننت أنك لا تريد — وهذه القلادة الذهبية ؟ !

إجمنت : ها أنت ذى ترينها .

كلارا : وإياها قلدك الأمبراطور ؟

إجمنت : أجل ، ياطفلتى . والقلادة والوسام يخولان حاملهما أنبل الحريات . فلا أعترف فوق الأرض بحَكَمٍ على أعمالى سوى صاحب الوسام الأكبر ومحفل الفرسان مجتمعاً .

كلارا : إذاً لك أن تدع الدنيا بأسرها تحكم عليك ولا تحفل بحكمها . — إن المخمل آية فى الإبداع والحبك والتطريز ! إن المرء ليحار أين يبدأ ! !

إجمنت : أشبعى نظرك .

كلارا : والقلادة الذهبية ؟ لقد قصصت علىّ حكايتها . وقلت إنها رمز لكل عظيم ثمين لا يُستحق ولا يُنال إلا بالكد والجد . إنها ثمينة جداً — ويمكن أن أقارنها بحبك — فإنى أحمله بالمثل فى قلبى — على أن — .

إجمنت : ماذا ؟

كلارا : على أنه عند هذا وتقف المقارنة .

إجمنت : كيف ؟

كلارا : لم أنل حبك بالكد والجد فلا أستحقه .

إجمنت : الحب شىء آخر . إنك تستحقينه لأنك لا تطلبينه . ويفوز به فى الناس غالباً من لايجرى وراءه .

كلارا : أهذا القول منك عنك . أهذا الاعتراف الأبىّ اعترافك ؟ أنت يا من يحبه الشعب عن بكرة أبيه ؟

إجمنت : أفعلت للشعب شيئاً ؟ أكان فى مكنتى أن أعمل له شيئاً ؟ إن حبه إياى من حسن إرادته .

كلارا : كنت اليوم بالتأكيد عند الوصية ؟

إجمنت : نعم كنت .

كلارا : أعلاقتك بها طيبة ؟

إجمنت : تبدو كذلك فنحن أحباء . ويخدم أحدُنا الآخر .

كلارا : وفى السريرة ؟

إجمنت : أريد لها الخير ، ولكل منا نياته . وهذا لا يضير أحداً . إنها سيدة كاملة ، وتعرف ناسها . وهى ذات بصيرة نفاذة وإن لم تكن ذات مكر سىء . وأننى لأسبب لها المتاعب ، إذ ترى مسلكى محفوفاً بالأسرار ، وهو فى الواقع خلو منها .

كلارا : لا أسرار فيه أبدا ؟

إجمنت : لا يخلو الأمر . احتياط بسيط . كل نبيذ مع الزمن يخلف فى الدنان شيئاً من الكدورة . وأورانيان لها خير منى موضوعا ، وشغل جديد دائم . فقد بات مأثوراً عنه أنه

يخفى دائماً شيئاً . فهى تتطلع دائماً إلى جبينه تبتغى اكْتنَاهَ ما وراءه ، وتتأمل خطواته لترى أية وجهة هو موليها .

كلارا : أتخادع هى ؟

إجمنت : وصية وتسألين ؟

كلارا : عفوا . أردت أن أسأل : أتظهر غير ما تبطن ؟

إجمنت : لا أكثر ولا أقل من كل من يريد يلوغ أغراضه .

كلارا : إنى قليلة الدراية بشئون العالم . لكنى أرى لها روح الرجال ، وأراها ليست ككل النساء . ليست مثلنا نحن الخياطات والطاهيات . فهى عظيمة شجاعة ذات عزم .

إجمنت : أجل . لولا أن الأمور تذهب بعيداً . فقد زايلها الهدوء هذه المرة قليلا .

كلارا : كيف ؟

إجمنت : إنها أيضا ذات شوربة . ويصيبها النقرس أحيانا . فهى مثال المرأة المسترجلة .

كلارا : امرأة جليلة . فإنى لأتهيب الظهور أمامها .

إجمنت : لستِ فى العادة هيابة . — ولن يكون هذا منك خوفا ، بل خفر العذارى (تخفض كلارا بصرها وتتناول يده وتميل إليه) إنى أفهمك ، أيتها الفتاة الحبيبة . فلك أن ترفعى بصرك (يقبل عينيها) .

كلارا : دعنى ألوذ بالصمت . دعنى احتفظ بك . دعنى أطّلع فى عينيك وأجد فيهما كل شىء من عزاء وأمل وفرح وشجن . (تعانقه وتتأمله) قل لى . قل . أنى لا أفهم . أأنت إجمنت ؟ الكونت إجمنت ؟ إجمنت العظيم الذى يثير هذه الضجة وتكتب عنه الصحف ، وتتعلق به البلاد !

إجمنت : لا يا كلارا . لسته .

كلارا : كيف !

إجمنت : أرأيت يا كلارا . دعينى أجلس . (يجلس وتركع هى أمامه فوق مقعد صغير ، وتضع ذراعيها فى حجره وتتأمله) إجمنت الآخر شخص بَرِمٌ . جاف . فاتر لا ندحة له عن الاعتماد على نفسه ، والظهور حينا بهذا الوجه ، وحينا بذاك . شخص متعب مُنْكِرٌ ، متورط ، حين يحسبه الناس راضيا مرحا ؛ محبوب من شعب لا يعرف ما يريد ، مكرم مرفوع إلى العلا

من جمهور لا يُركن إليه ؛ محوط بأصدقاء لا يجوز له أن يعتمد عليهم ، مراقب من أناس يريدون أن يدانوه . يكد ويجد ، من دون غرض غالبا و بلا جدوى . دعيني ألوذ بالصمت فلا أحدثك عن حال إجمنت الذى ذكرتُ وعن شعوره . لكن إجمنت الماثل أمامك يا كلارا إنسان هادئ ، صريح ، سعيد ، محبوب ، معروف من خير القلوب طراً . من القلب الذى يعرفه هو أيضا حق المعرفة ، ويضمه إلى قلبه وملؤه الحب والثقة . (يضمها إلى صدره) ، هذا هو إجمنت الذى تملكين .

كلارا : إذن دعنى أموت . فالدنيا لا تدخر لى فوق هذه الغبطة غبطة !

الفصل الرابع

شارع

يتر . المعلم النجار

يتر : هيه ! بست ! هيه ! أيها الجار ! كلمة

المعلم النجار : إمض فى طريقك والتزم الهدوء .

يتر : كلمة فقط . لا جديد ؟

المعلم النجار : ليس سوى حَظْرِ الكلام علينا من جديد .

يتر : كيف ؟

المعلم النجار : تعال إلى البيت ! وحاذر ! فقد أصدر الدوق ألبا بمجرد وصوله أمراً يدمغ فيه بالخيانة العظمى من دون تحقيق كل اثنين أو ثلاثة وجدوا يتحادثون فى الشارع .

يتر : يا للمصاب !

المعلم النجار : ويعاقب بالسجن المؤبد من يتكلم فى شئون الدولة .

يتر : يا لحريتنا !

المعلم النجار : وبالموت من ينتقد أعمال الحكومة .

يتر : يا لرؤوسنا !

المعلم النجار : وبالأمانى والوعود الكبار الآباء والأمهاتِ والأولادَ والأقرباء والأصدقاء والخدمَ الذين يبلغون المحكمة المخصوصة ما يجرى فى البيوت .

يتر : لنعد إلى البيت !

المعلم النجار : أما المطيعون فقد وُعدوا بأن لا يمسهم أذى فى أنفسهم أو شرفهم أو أموالهم .

يتر : يا للرحمة ! لقد حز الألم فى فؤادى مذ دخل الدوق المدينة . من ذلك الحين والسماء تبدو لى وكأنه تحجبها غمامة سوداء وكأنها تطبق على الأرض ، حتى ليجب أن يسير المرء مقوّس الظهر ليأمن الاصطدام بها .

المعلم النجار : وكيف راقك جنوده ؟ حقاً هذه سرطانات تختلف عما ألفناه .

يتر : خسؤاً ! إن المرء ليختنق إذ يرى فصائلها تنحدر من الأزقة منتصبى القامة كالشمعة ، ذوى نظرة غريبة ، وخطوة واحدة ، بالغاً ما بلغ عديدها ! وإذا وقفوا للحراسة ومررت بأحدهم فكأنه يخترق مكنونك بنظراته . يلوح لك جافا أنكد كأنك تقع منه فى كل ركن على سجان . إن مرآهم ليكرب نفسى ، فقد كان عسكرنا بالقياس إلى هؤلاء قوما تطيب لهم الدعابة . يتبسطون ، ويقفون هناك بسيقان لدنه ، وقبعات مسحوبة فوق الآذان . يعيشون ويدعون الناس يعيشون . أما هؤلاء فآلات يكمن فيها الشيطان .

المعلم النجار : حين ينادى أحدهم « قف » ويصوب بندقيته أتظن أننى أقف .

يتر : إنى أصبح كالأموات .

المعلم النجار : فلنذهب فى الحال إلى بيوتنا .

يتر : لا أمل فى صلاح الأمور . فإلى اللقاء .

(ينضم سوست)

سوست : صديقىّ ! رفيقىّ !

المعلم النجار : صه . ودعنا نذهب .

سوست : أتعلمان ؟

يتر : نعلم أكثر مما ينبغى .

سوست : الوصية قد رحلت .

يتر : ليرحمنا الله .

المعلم النجار : كانت تحكمنا إلى الساعة .

سوست : رحلت فجأة وفى سكون . لم تستطع العيش مع الدوق . وقد أبلغت النبلاء أنها عائدة . ولكن من يصدق .

المعلم النجار : سامح الله النبلاء . فقد تركوا سوط العذاب الجديد ينزل فوق رقابنا . لقد كان فى وسعهم أن يحولوه . الآن قد ضاعت امتيازاتنا .

يتر : بربك لا تذكر عن الإمتيازات شيئاً . فإنى لأشتم رائحة صباح الإعدام : السماء تأبى أن تلوح ، والضباب يحط علينا .

سوست : لقد رحل أورانيان أيضاً .

المعلم النجار : إذن لقد تخلوا عنا تماما .

سوست : لايزال الكونت إجمنت هنا .

يتر : شكراً لله . ليكن القديسون جميعها فى عونه حتى يُفرغ قصاراه . إنه الوحيد الذى يستطيع شيئاً .

(فانسن يظهر)

فانسن : أخيراً أقع على بضعة لم تتسلل بعد ؟

يتر : تكرم علينا بالانصراف .

فانسن : إنك غير لطيف .

المعلم النجار : ليس هذا أوان المجاملات . أو تأكُلكَ حَدَبَتُكَ ثانية ؟ أشفيت تماما ؟

فانسن : سلوا الجندى عن جراحه . ولو قد قابلت الضرب بمثله لما أمكن أن يصيبنى شىء منه طول حياته .

يتر : يمكن أن يتفاقم الأمر .

فانسن : تستشعر من نذير العاصفة التى تهب ، فتوراً أسيفاً فى أعضائك ، فيما يلوح .

المعلم النجار : أعضاؤك ستتحرك قريباً فى مكان آخر ، إذا أنت لم تلزم السكون .

فانسن : يا للفيران المساكين . إنه سرعان ما يتملكها اليأس إذا جاء رب البيت بهرة جديدة . إنه شىء للتبديل فحسب . ولكنا نسير سيرتنا الأولى . فألزموا إذن السكون !

المعلم النجار : إنك صعلوك متطاول .

فانسن : يا للصديق المغفل ! دع الدوق يفعل ما يشاء . إن السنور الهرم يبدو كما لو كان ازدرد شياطين بدل الفيران ، فهو لا قبل له بهضمهم . فاتركوه الآن ، فإن له أن يأكل ويشرب وينام كسائر الناس . وليس ما يدعونى إلى القلق إذا أنتم تريثتم . فستأخذ الأمور فى بدايتها مجرى سريعاً . ثم لايلبث أن يهتدى إلى أنه خير له أن يتناول الطيبات فى قاعة أكله ، ويستريح بالليل ، من أن يتصيد الفيران فى الأهراء . فاذهبوا ، فأنا عليم بالوُلاة .

المعلم النجار : ما أعجب ما يعتلج كل هذا برأس هذا الإنسان . لو أننى قلت مثله فى حياتى لما أُمِنت لحظة على نفسى .

فانسن : لتظلوا هادئين ! فالله فى سمائه لايحسكم أيتها الديدان . فهل يشعر بكم الوصىّ !

يتر : يالك من بذىء .

فانسن : أعرف آخرين لو أن لهم عرق خياط فى أجسادهم بدل بطولتهم لكان هذا خيراً لهم .

المعلم النجار : من تعنى بهذا الكلام ؟

فانسن : أعنى الكونت .

يتر : إجمنت ؟ وماذا يخشى هذا ؟

فانسن : إنى رجل مُعدِم . كنت خليقاً أن أعيش سنة مما يفقده إجمنت فى مساء واحد . ومع ذلك فأخلق به أن يهبنى إيراد سنة كاملة ، لو أن له رأسى لربع ساعة فقط .

يتر : تحسب نفسك شيئاً مذكوراً ؟ إن شعر إجمنت لأحذق من دماغك .

فانسن : تكلموا ! ولا تتلطفوا ! إن السادة هم أول من ينخدعون ، وما كان له أن يأمن جانب أحد .

يتر : يالهذيانه ! أمثل هذا السيد ! ؟

فانسن : أجل . لأنه ليس بخياط .

يتر : يالله القذر .

فانسن : أريد له شجاعتكم تسرى فى جسمه ساعة من الزمان ، لتقلقه وتثيره ، وتظل تأكله حتى يغادر المدينة .

يتر : إنك تهذى بكلام غير مفهوم . إنه أمنع من النجم فى السماء .

فانسن : ألم تروا أبداً نجما يهوى ؟ يزول وكأنه لم يكن .

المعلم النجار : ومن يريد به شراً ؟

فانسن : من يريد ! أتريد أنت أن تمنع هذا ؟ أتريد أن تثير اضطرابا إذا ألقوا القبض عليه ؟

يتر : آه .

فانسن : أتريدون أن تضحوا بأنفسكم من أجله .

سوست : إيه — .

فانسن : (مقلداً إياهم) . إيه . آه . أوه . تعجبوا بأحرف الأبجدية كلها . فهكذا الأمر وسيبقى هكذا . فليحرسه الله .

يتر : إنى أرتاع لقلة حيائك . أيخشى شيء على مثل هذا الرجل النبيل الشريف ؟

فانسن : إن الخبيث موفق فى كل مكان . فإذا كان متهما تغفل القاضى من كرسى الإتهام . وإذا كان قاضياً طاب له أن يجعل المتهم مجرما . وقد نسخت محضراً من هذا القبيل . أغدق فيه البلاط الحمد والعطايا على محقق لأنه استجوب رجلا شريفاً يراد به السوء ، فجعل منه ملفقاً .

المعلم النجار : هذا كذب جديد . فماذا يمكنهم أن يستخرجوا من رجل برئ ؟

فانسن : يالك من أبله . حيث لايمكن فى الاستجواب استخراج ، يمكن استدخال . والرجل الشريف لايفكر فى العواقب . وهو إلى هذا جد عنيد . يُسأل أولا فى هينة ورفق . والمقبوض عليه فخور ببراءته كما يقولون ، فيقول صراحة كل ما يخلق بالفطين أن يخفيه . فيبنى المحقق على أجوبته أسئلة ، ويترصد لما يمكن أن يتراءى له ظلا من تناقض ، فيعقد عندئذ حبالته ، ويدع الغبى المسكين يتخبط فيها . فيقول هنا شيئاً أكثر مما ينبغى أن يقال ، وهناك شيئاً أقل مما ينبغى قوله ، أو يكتم شيئاً لوسوسة علمها عند الله ، أو يجوز عليه التخويف عند حد من الحدود ، فيساق فى الطريق المرسوم . وأؤكد لكم أن المتسولات لايبذلن من العناية فى التنقيب عن الخرق فى النفايات بقدر مايبذل مثل هذا المزور ، ليلفق من بلاغات وظروف تافهة ، خاطلة ، مدلسة ، مشوشة ، معتصرة ، مغلقة ، معروفة ، منكرة ، صورة من القش المنفوش لإفزاع الطير . وذلك ليستطيع على الأقل شنق المتهم صورياً . وللمتهم المسكين أن يحمد الله بعد ذلك إن كان لايزال يستطيع رؤية نفسه مشنوقا .

يتر : إن للرجل لسانا زربا .

المعلم النجار : مثل هذا يجوز على الذباب . أما الزنابير فتضحك من نسيجك .

فانسن : هذا حسب العناكب . انظروا فللدوق النحيل هيئة عناكب الحدائق . لا الضخمة البطن ، فهذه أقل أذى ، بل الطويلة الأرجل ، الضامرة الجسم ، التى لا يسمنها الأكل . ثم هى تنسج خيوطا رفيعة جداً لكنها جد متينة .

يتر : إن إجمنت من فرسان الفروة الذهبية . فمن يجرؤ أن يمسه بسوء ؟ ليس سوى أمثاله من تجوز لهم محاكمته ؛ وليس سوى محفله من له الحق فى محاكمته . فلسانك الطويل ، وضميرك السيء يغويانك إلى هذه الثرثرة .

فانسن : وهل من أجل ذلك أريد له السوء ؟ إنى لأحب له الخير ، فهو سيد من الطراز الأول . لقد أطلق بضعة من أعز أصدقائى وعلى ظهورهم حدبة متورمة من شدة الجلد ، وكان غيره خليقاً أن يرسلهم إلى المشنقة . والآن فاذهبوا ! اذهبوا ! فإنى لأنصح لكم بالانصراف . أرى هناك من جديد حلقة تنضم . وهى لا تبدو ميالة إلى مؤاخاة أمثالنا . فلننتظرها ! لننتظرها ! ولنتفرج هادئين . إن لى ابنتى أخ وصديقاً ساقياً ؛ فإذا شربوا من هؤلاء ولم يلطف الشراب شراستهم ، فهم إذن ذئاب مسعورة .

قصر أوبلنبرج

منزل الدوق ألبا

سِلْفا وكومتس يتلاقيان

سلفا : هل نفذت أوامر الدوق .

كومتس : بالحرف الواحد . أمرت كل الدوريات اليومية بأن تكون جميعاً فى أماكنَ مختلفةٍ فى وقت واحد . وهى تجوب المدينة فى تلك الأثناء كالمعتاد للمحافظة على النظام ، من دون أن تعلم إحداها عن الأخرى شيئاً . كل منها تعتقد أن الأمر قد صدر إليها وحدها . وفى لحظة واحدة يمكن ضرب النطاق ، واحتلال جميع المنافذ المؤدية إلى القصر . أفتعلم أنت سبب ذلك ؟

سلفا : اعتدت أن أُطيع طاعة عمياء . ومن أحق بالطاعة من الدوق . فالنتيجة توشك أن تبرر أمره .

كومتس : حسناً . حسناً . وليس عجيباً أن تكون مثله كتماناً وإيجازاً . فإنك ترافقه دائماً . أما أنا فلم آلف هذا الأسلوب . إذ كنت معتاداً الخدمة الإيطالية وهى أسهل . إنى رجل يجرى الإخلاص وتجرى الطاعة فى عروقى . لكنى اعتدت الثرثرة والتساؤل . وأنتم

تلزمون الصمت جميعاً ، ولا تسرون عن أنفسكم أبداً . والدوق عندى يشبه برجا من المعدن لا باب له . يدخله أهله طائرين . وقد سمعته أخيراً يتحدث على المائدة عن شخص مرح ودود ، فيقول إنه كخانة رديئة ذات دلالة بارزة تستهوى المتسكعين والمتسولين واللصوص .

سلفا : أو لم يقتدنا إلى هنا صامتاً ؟

كومتس : لا اعتراض على هذا بالتأكيد . فمن شهد حكمته التى تجلت فى استقدامه الجيش من إيطاليا إلى هنا فقد شهد شيئاً عجباً ، ورأى كيف كان ينسل بين الصديق والعدو ، بين الفرنسيين ، ملكيين وزنادقة ، وبين السويسريين والحلفاء على السواء ، وكيف راض الجند على أصرم طاعة ، وسيّر جيشاً كهذا فى سهولة وسلاسة . وكان مثل هذا التسيير محفوفا فى ظن الناس بالأخطار . — لقد أمكننا أن نرى ونتعلم شيئاً .

سلفا : وكذلك هنا . أو ليس كل شىء ساكناً هادئا كأن لم تكن ثورة قط ؟

كومتس : لقد كانت الحالة حين قدومنا تحف بها السكينة غالبا .

سلفا : لقد باتت الأقاليم أهدأ كثيراً . وإذا كان ثم من لا يزال يتحرك ، ففى سبيل الهرب . وحتى هذا يوشك فى أغلب الظن أن يجد الطريق مسدوداً فى وجهه .

كومتس : عليه أن يفوز أولا برضى الملك .

سلفا : وليس عندنا أهم من الفوز برضاه هو . فلن يفوته ومن يُوصى به الجزاء إذا قدم الملك .

كومتس : أو تظن الملك آتياً ؟

سلفا : إن كثيراً من المنشئات ليعمل على إعداده ، حتى ليرجح كل الرجحان أن يأتى الملك .

كومتس : ليست هذه المنشئات بالتى تقنعنى .

سلفا : إذن أمسك عن الكلام فى هذا على الأقل . فإنه إن كانت نية القدوم لا تَحْدُو الملك ، فالمؤكد على الأقل أنه ينبغى أن يعتقد الناس بقدومه .

(يدخل فرديناند بن ألبا غير الشرعى)

فرديناند : ألم يخرج أبى بعد ؟

سلفا : نحن فى انتظاره .

فرديناند : يوشك أن يأتى الأمراء .

كومتس : أيأتون اليوم ؟

فرديناند : نعم . أورانيان و إجمنت .

كومتس : (يخاطب سلفا فى صوت خافت) إنى أفطن إلى شىء .

سلفا : استبقه لنفسك .

(يدخل الدوق ألبا — يتراجع الآخرون بدخوله وتقدمه)

ألبا : كومتس !

كومتس : (يتقدم) مولاى .

ألبا : هل وزعت الحرس وأصدرت إليه الأوامر ؟

كومتس : على غاية الدقة . فالدوريات اليومية —

ألبا : كفى — انتظر فى الرواق . سيخبرك سلفا بالخطة التى تجمع الدوريات فيها وتحتل بها المسالك المؤدية إلى القصر . وما بقى فأنت تعلمه .

كومتس : أجل يا مولاى (يذهب) .

ألبا : سلفا !

سلفا : ها أنذا .

ألبا : كل شىء قدرته فيك منذ البداية من شجاعة وتصميم وتنفيذ لايدافع ، إبْدِه اليوم .

سلفا : أشكر لكم هذه الفرصة التى أتَحْتُم لى لأُظهر أنى ما زلت من تعهدون من قديم .

ألبا : إذا دخل الأمراء علىّ فأسرع بإلقاء القبض على كاتب سر إجمنت . وقد اتخذت كافة الإجراءات لاعتقال سائر من عينتهم ؟

سلفا : اعتمد علىّ . ما قدر لهم سيصيبهم و يروعهم فى حينه ككسوف الشمس الذى لايخطئ حسابه .

ألبا : أكلفت من يلاحظهم ملاحظة دقيقة ؟

سلفا : الجميع و إجمنت قبلهم . إنه الوحيد الذى لم يغير مسلكه منذ قدمت إلى

هنا فلا يزال يقضى نهاره كله متنقلا من صهوة جواد إلى صهوة آخر ، قَارِياً الضيف ، مرحا على الدوام ، مسامراً على المائدة ، يلعب بالنرد ، ويزاول الرماية ، ويتسلل بالليل إلى الحبيبة . أما الآخرون فقد كفوا فى صورة ملحوظة عن العيش على أسلوبهم ، ولزموا دورهم ، حتى ليخيل لمن يقف ببابهم أن بالدار مريضاً .

ألبا : ومن ثم عجل قبل أن يشفوا على الرغم منا .

سِلفا : سأتولى أمرهم وسنغمرهم كأمرك بالهبات التى تأسرهم . إنهم فزعون يقدمون لنا من حسن السياسة شكراً يزجيه القلق . ويشعرون بأن خير ما يفعلون هو الهرب . لكن أحداً منهم لايجرؤ أن يخطو خطوة واحدة . إنهم ليترددون ولا يستطيعون أن يجمعوا أمرهم . ويمنعهم ذلك الروح المتسلط عليهم من أن يقدموا فرادى على عمل جرئ . إنهم حريصون على تجنب الريب فلا يكون من ذلك إلا زيادة الارتياب فيهم . وإنه ليدعو إلى الغبطة أن خطتك تنفذ بحذافيرها .

ألبا : لا أغتبط إلا بما يتم . واغتباطى به ليس مع ذلك خالصاً ، فإن ثم على الدوام — شيئاً يدعونى إلى التفكير والاهتمام . والحظ عنيد ، يكرم الحقير دائماً ومن لا خلاق له ، ويبخس الفعال الصادرة عن روية ، ويلطخها بنتيجة زرية . انتظر حتى يأتى الأمراء فمركومتس باحتلال الشوارع ، وعجل أنت بالقبض على كاتب إجمنت وبقية من عينت لك . ثم تعال إلى هنا ، وبلغ ولدى الخبر ليحمله إلىّ فى المجلس .

سلفا : آمل أن يؤذن لى بالوقوف بين يديك هذا المساء (يتجه ألبا نحو ولده الواقف فى الرواق . بصوت خافت) إنى لا أجرؤ على الكلام ؛ لكن أملى يتزعزع . وأخشى أن لا تجرى الأمور بما لا يُشتهى . فإنى لأرى أرواحا تزن مصائر الأمراء والآلاف المؤلفة من الناس فى كِفَّاتٍ سوداء ، يخيم عليها السكون ويستغرقها التفكير . إن لسان الميزان يتذبذب بطيئاً هنا وها هنا ، والقضاة تبدو عليهم علائم التفكير العميق . وسترجح آخر الأمر كفة ، وتشيل كفة بمشيئة الأقدار ، ويصدر القرار (ينصرف) .

ألبا : (يتقدم وفرديناند) كيف وجدت المدينة ؟

فرديناند : لقد فتر كل شىء فيها فقد ركبت من شارع إلى شارع وكأنى أُزَجِّى الفراغ . فألفيتُ حرسك الذين أحسن توزيعهم يحبسون الأنفاس ، حتى لايجرؤ أحد على همس من

شدة الخوف . فالمدينة تشبه حقلا تضيئه العاصفة من بعيد ، فليس فيه طير أو حيوان إلا ما ينسل مسرعا إلى ملجأ يعصمه .

ألبا : ألم تلق غير هذا شيئاً .

فرديناند : جاء إجمنت إلى السوق راكباً ومعه بعض الرجال ، فحيا أحدنا الآخر . وكان تحته جواد قوى الشكيمة فأطريته . فصاح بى : لنعجل بامتطاء الجياد فسنحتاج إليها قريبا . ثم قال إنه سيرانى اليوم ثانية إذ يجئ لمشاورتك إجابة لطلبك .

ألبا : أجل سيراك مرة أخرى .

فرديناند : إنه فيمن أعرف من الفرسان خيرهم ، وأنه ليلوح لى أننا سنكون أصدقاء .

ألبا : إنك دائماً متسرع ، قليل الحذر ، وأرى فيك دائماً خفة أمك وطيشها الذى لم يكن مفر من أن يلقيها بين أحضانى . فالظواهر تغرك فتدفعك إلى غير علاقة خطرة .

فرديناند : إرادتك كفيلة بتكييفى .

ألبا : إنى أغتفر لدمك الفتىّ هذه الطيبة الطائشة وهـذا المرح الأرعن . فقط لا تنس المهمة التى ابتُعثتُ من أجلها إلى هنا ، ولا النصيب الذى أحب أن أجعله لك .

فرديناند : ذكرنى ولا تحفل بى ، أنّى وجدت هذا ضروريا .

ألبا : (بعد هنيهة) بُنَىّ .

فرديناند : أبى .

ألبا : إن الأمراء قادمون وشيكا . أورانيان وإجمنت آتيان . وليس من سوء الظن أنى أكاشفك الآن فقط بما أقدر أن يقع . إنهما لن يبرحا هذا المكان ثانية .

فرديناند : ماذا تدبر يا أبى .

ألبا : لقد قررت اعتقالهما — أراك دهشا . فاسمع ما عليك أن تفعله . وستعلم الأسباب متى تم الأمر . أما الآن فلا وقت للتفسير . إنى لأود أن أبحث معك وحدك كل جليل وخفى . فإن آصرة قوية تربط أحدنا بالآخر . أنت عندى عزيز حبيب وأود أن أكل إليك كل شىء . ليست الطاعة وحدها ما أريد أن أعودك إياه ؛ بل أحب أيضاً أن أنقل إليك القدرة على التعبير والأمر والتنفيذ ، وأن أخلف لك تركة عظيمة ، فتكون للملك خادمه الذى لا يستغنى عنه ، وأن أجهزك بخير ما عندى فلا تخجل من الظهور بين إخوتك .

فرديناند : أى شىء لست به مديناً لك على هذا الحب الذى تؤثرنى به . أنت الذى ترتعد الدولة بأسرها منك .

ألبا : والآن فاسمع ما عليك أن تفعله حين يدخل الأمراء . فكل طريق إلى القصر سيحتل ، والأمر بذلك يحمله كومتس . وسيبادر سلفا إلى القبض على كاتب إجمنت وعلى سائر المشتبه فيهم . وتتولى أنت الإشراف على النظام بين حرس المدخل والأفنية . واعهد قبل كل شىء بهذه الغرف القريبة إلى آمن الرجال . ثم انتظر فى الرواق عودة سلفا . فإذا عاد فأحمل إلىّ ورقة عديمة الشأن لأفهم أن المهمة أديت . ثم أبق فى الردهة حتى ينصرف أورانيان فسر فى أثره . أما أنا فسأستبقى إجمنت هنا كأنما عندى ما أقوله له . وفى طرف الرواق أطلب إلى أورانيان سيفه ، وناد الحرس ، وعجل باعتقال أخطر رجل . بينما يكون إجمنت هنا فى قبضتى .

فرديناند : سمعاً وطاعة يا والدى . ولأول مرة بقلب حزين ونفس مهمومة .

ألبا : أعتفرها لك . فهذا أول يوم عظيم تحياه .

(يدخل سلفا)

سلفا : رسول من آنفرس . ها هو ذا كتاب أورانيان . إنه لايأتى .

ألبا : أيقول الرسول ذلك ؟

سلفا : كلا بل هذا حديث القلب .

ألبا : يتكلم فيك شيطانى . (بعد أن يقرأ الكتاب يومئ إلى كليهما فينسحبان إلى الرواق ويبقى هو وحده فى المقدمة) إنه لايأتى . لقد تكتم مسلكه حتى اللحظة الأخيرة . إنه يجرؤ على التخلف . كان الحكيم هذه المرة على غير ما افترضت . كان من الحكمة بحيث اطَّرحَ الحكمة . إن الساعة تدور وليس على العقرب سوى شقة بسيطة فيتم عمل عظيم أو يفوت فوتا لايدرك . ذلك أنه لا سبيل إلى استدراك أو تكتم . وقد وزنت كل شىء من زمن حتى نضج ، ولم تغب حالة كهذه عنى ، فاتخذت لها العدة . والآن والموقف يدعو إلى العمل لا أكاد أتحامى التردد من جديد بين ما للأمر وما عليه . أمن الحكمة أن أعتقل الآخرين بينما هو يفر منى ؟ أم أرجىء وأدع إجمنت ورجاله ومعهم كثيرون يفلتون . وقد لايقعون بعد اليوم فى قبضتى ؟ أبداً . أهكذا يقهرك القدر يا من لا تقهر ؟ ما أكثر ما فكرت ، وما أحكم ما رتبت ! ما أعظم

وأجمل ما دبرت ، وما أدنى ما كان الأمل إلى التحقيق . فالآن فى لحظة الفصل تقف بين شرين ، وتخبط فى المستقبل المظلم كما تخبط فى حق النرد . فما تمسكه لايزال يتدحرج ولا تزال تجهله ، لا تعلم أفائز أنت أم خاسر . (ثم ينتبه شأن الذى يسمع شيئاً ويخطو إلى النافذة) إنه هو .

— إجمنت . أيدخل بك جوادك بهذه السهولة فلا يتراجع من رائحة الدم ، ومن الطيف الذى ينتضى السيف اللامع لاستقبالك بالباب ؟ ترجل — هكذا تدخل إلى قبرك بإحدى قدميك ، ثم بكلتيهما . امسح على رقبته وربت عليه للمرة الأخيرة جزاء ما خدمك هذه الخدمة الجريئة . أما أنا فليس لى خيار . ففى هذا العمى الذى يقترب به إجمنت ما أراه يسلم نفسه لك مرة أخرى . اسمعا . (يعجل إليه فرديناند وسلفا) أفعلا ما أمرتكما به فلن أغير إرادتى . سأستبق إجمنت على أى نحو كان حتى تحمل إلى النبأ من سلفا ثم ابق على مقربة . أنت أيضاً يحرمك القدر من فضل عظيم فيفوتك القبض على ألد عدو للملك (لسلفا) أسرع . (لفرديناند) اذهب لملاقاته . (يبقى ألبا لحظات وحده يذرع فيها المكان صامتاً) .

(يدخل إجمنت)

إجمنت : جئت أتلقى أوامر الملك ، وأسمع أية خدمة يقتضيها ولاؤنا الدائم له .

ألبا : إنه يرغب قبل كل شىء فى سماع رأيك .

إجمنت : فى أى صدد ؟ أيأتى أورانيان أيضاً ؟ لقد حسبته هنا .

ألبا : يؤسفنى أن نفتقده فى هذه الساعة الخطيرة بالذات . إن الملك يرغب فى سماع ما تشير به وتنصح لإرضاء هذه الولايات ثانية . أجل إنه ليأمل أن تعاوننا بقوة على تهدئة هذه القلاقل ، وإقرار النظام فى الأقاليم كاملا مرجو الدوام .

إجمنت : فى وسعكم أن تعلموا أكثر منى أن كل شىء قد أخلد إلى السكينة إخلاداً كافياً . بل لعله كان أكثر هدوءاً قبل أن يبعث مظهر الجند الجُدُد الخوف ، ويثير القلق من جديد .

ألبا : يلوح أنكم تريدون التلميح بأنه كان أولى أن لايجعلنى الملك يحيث أوجه إليكم سؤالا .

إجمنت : عفواً . فإنه ليس من شأنى أن أحكم أكان إرسال الجيش ، أم كانت السلطة التى يبعثها محضر جلالته أخلق وحدها بأن تفعل فى النفس وتؤثر تأثيراً قويا ؟ فالجيش هو

الموجود هنا لا جلالة الملك . وأننا لنكونن جحودين جداً وكثيرى النسيان إذا نحن لم نذكر ما يطوق أعناقنا من فضل الوصية . فلنؤمن بأنها ألزمت الثوار السكينة بمسلكها الحكيم الجريء ، إذ توسلت فيه بما لها من سلطة وهيبة وقوة إقناع ، وسعة حيلة ، وأنها أعادت شعباً متمرداً إلى أداء واجبه فى بضعة أشهر ، وهو أمر أدهش العالم .

ألبا : لست أنكر هذا . فالاضطراب قد هدأ . والكل فيما يلوح قد ألزموا حدود الطاعة . لكنه أليس تخطى هذه الحدود وقفاً على إرادة كل منهم ؟ فمن ذا يمنع الشعب من الثورة ؟ وأين السلطة التى تردهم ؟ ومن يضمن لنا أن يظلوا مظهرين الولاء والخضوع ؟ إن حسن إرادتكم هو كل الضمان الذى نملكه .

إجمنت : أفليس حسن إرادة الشعب هو خير ضمان وأنبله ؟ يا لله ! ومتى جاز لملك أن يشعر بأنه آمنٌ من شر أعدائه فى الداخل والخارج إلا بأن يقف الجميع وراء الواحد ، وأن يقف الواحد مع الجميع ؟

ألبا : ما أحسبنا أحرياء بأن نقتنع بأن الأمور تجرى هنا على هذا المنوال .

إجمنت : ليصدر الملك عفواً عاما يهدئ النفوس . فسرعان ما يرى المرء كيف أنه بالثقة يعود الولاء والحب إلى مكانهما القديم .

ألبا : وكل من عاب جلالة الملك ، ودنس قدسية الدين ، أيسرح حراً طليقاً ، ويغدو ويروح على هواه ، ويعيش مثالا للآخرين على أن الجرائم الشنيعة تذهب فى الناس بلا عقاب ؟

إجمنت : أليس الأثم الناجم عن الطيش والعربدة أخلق بأن يغتفر ، لا أن يقسو عليه الجزاء ، وخاصة إذا كان الأمل وطيداً واليقين قائماً ، بأن الشرور لن تعود ؟ ألا يكون الملوك بذلك آمن على أنفسهم ؟ ألا يذكر بالخير فى الناس والأجيال المقبلة من قدروا على العفو عمن أساء إلى كرامتهم ؛ واستطاعوا الرثاء للمسىء والازدراء لإساءته ! ألا يرتفعون إلى مثل مرتبة الخالق الذى لا تصل إليه جريرة فى علاه ؟

ألبا : ومن ثم ينبغى على الملك أن ينافح عن عزة الله والدين ، وأن ننافح نحن عن هيبة الملك . فما يترفع العظيم عن استنكاره يكون علينا نحن أن نعاقب عليه ، وعندى أنه ما من آثم يجوز أن توليه مسرة الإفلات من العقاب .

إجمنت : أو تظن أنك تنالهم جميعاً ؟ ألا تسمع كل يوم أن الخوف يقذف بالناس هنا وهاهنا ، ويشردهم إلى الخارج . سيهرب الأغنياء متاعهم ، ويهربون هم وأبناؤهم وأصدقاؤهم . وسيعير الفقير جاره يديه النافعتين .

ألبا : سيفعلون إذا لم نستطع منعهم . ومن ثم يطلب الملك إلى كل أمير أن يمده برأيه وعمله ، ويقتضى الجدّ كل حاكم لا كلاما وحكاية ، كما هى الحال الآن ، وكما يمكن أن تكون إذا ترك كل شىء يجرى كما يجرى . أما التفرج على شر مستطير ، والتعلل بالأمل ، والاطمئنان إلى الزمن ، والضرب مرة كما هو الشأن فى المرافع لإحداث صوت ، تظاهراً بالعمل ، والعمل لايخطر بالبال — أليس معناه أن يعرض المرء نفسه للريب ، وأن يشتبه فى أنه يتفرج مغتبطاً على الثورة التى لا يحب أن يكون من مضرميها ، لكنه يرضى عنها .

إجمنت : (على وشك أن يهب ، لكنه يتمالك نفسه ، ويتكلم بعد هنيهة رابط الجأش) ليست كل نية واضحة ، ولا نية بعض الرجال بالتى يساء تأويلها . إن المرء ليسمع من كل ناحية أن نية الملك لا تتجه إلى حكم الأقاليم بقوانين صريحة واحدة ، ولا إلى صيان جلال الدين ، ومنح الشعب سلاما عاما ، بقدر ما تتجه إلى إخضاعه إخضاعا محتما ، واغتصاب حقوقه القديمة ، والاستيلاء على أملاكه ، وتقييد حقوق النبلاء القيمة ليخدمه النبيل من أجل هذه الحقوق ، وليجعل جسمه وحياته وقفاً عليه وحده . يقولون إن الدين ليس إلا بساطاً فاخراً يستر المرء ليكون من الأسهل عليه وراءه أن يرسم خطته الخطرة . إن الشعب جاث على ركبتيه يصلى لما بدا من أمارات مقدسة ، والصياد من ورائه يبغى أن يستلبه هذه الأمارات .

ألبا : أمثل هذا الكلام أسمع منك ؟

إجمنت : ليست هذه أفكارى . وإنما هو ما ينتشر ويذيع عالياً مرة هنا ومرة هناك على لسان الكبير والصغير ، والحكيم والأخرق . إن أهالى الأراضى الواطئة يخافون نيرا مزدوجا . ثم من يكفل لهم حريتهم ؟

ألبا : حرية ؟ كلمة جميلة لمن يحسن فهمها . أية حرية يريدون ؟ وما مبلغ حرية أكثر الناس حرية ؟ — أن يعمل صالحا . وليس الملك بالذى يحد من هذه الحرية . لا . لا . إنهم لايعدون أنفسهم أحراراً حين لايستطيعون الإضرار بأنفسهم وبالغير . أليس الأفضل

التخلى عن الولاية لاحكم شعب كهذا ؟ إن الخلاف ليدب فى صفوفه إذا ألح عليه أعداء من الخارج ليسوا فى حساب أحد من الأهالى ، إذ كل منهم فى شغل بجاره . فإذا طالبه الملك بالعون ، تفرقت كلمته وراح وكأنما يتآمر مع أعدائه . أفضل من هذا كثيراً أن يُضيَّق من هذه الحرية ليمكن حكمهم كما يحكم الأطفال ، وليقادوا لمصلحتهم كما يقاد الأطفال . وأعتقد أن الشعب من الشعوب لايهرم ولا يرشد بل يظل طفلا على الدوام .

إجمنت : ما أندر ما يبلغ ملك سن الرشد ! ثم ألا يُؤثر الكثيرون أن يكون الكثيرون موضع ثقتهم لا واحد بعينه ؟ وأن لا تكون ثقتهم بهذا الواحد بل بالهيِّنين عليه ، بالشعب ، ذلك الذى يهرم من نظرات سيده فهو وحده من له الحق فى أن يصير رشيداً .

ألبا : لعل المانع من رشده أنه لايترك لنفسه .

إجمنت : بل إنه لايترك لنفسه ، لأن أحداً لايحب أن يترك لنفسه . فليفعل من شاء مايشاء ، فقد أجبت عن سؤالك . وأعيد القول : إن هذا لا يكون ولا يمكن أن يكون . فإنى خبير بمواطنى . إنهم رجال يستحقون الدخول فى أرض الله كلهم جرئ ، وملك صغير . كلهم ثابت ، نشيط ، كفء ، أمين ، حريص على عاداته القديمة ، صعب على المرء أن يستحق ثقتهم ، لكنه من السهل أن ينالها . جامدون عنيدون ، يمكن أن تضغطهم ، لكنه لا يمكن الضغط عليهم .

ألبا : (الذى يكون قد تلفت حوله فى تلك الأثناء مراراً) أكنت تعيد هذا كله فى حضرة الملك ؟

إجمنت : أسوء من هذا لى ، أن أتهيب الكلام فى حضرته . وخير له ولشعبه إن شجعنى ، ومهد لى سبيل مصارحته بأكثر مما قلت .

ألبا : يمكننى مثله أن أسمع ما فيه نفع .

إجمنت : كنت أقول له : سهل أن يسوق الراعى قطيعاً من الغنم ، والثور يجر المحراث ولا يمانع فى جره . لكن الفرس النبيل إذا أردت ركوبه يجب عليك أن تتعرف أفكاره ، فلا تطلبَ إليه خرقا ، ولا تكون معه فى الطلب غير حكيم . ومن ثم يريد ابن البلد أن يحتفظ بدستوره القديم ، وأن يحكمه مواطنوه لأنهم يعرفون كيف يسوسونه ، ولأنه يأمل منهم الرعاية والعطف على مصيره .

ألبا : ألا يملك الوصى تغيير هـذا الدستور القديم . أليس هذا بالذات هو أكبر امتياز له ؟ وما الذى يثبت فى هذه الدنيا ولا يتحول ؟ وهل يمكن أن يبقى نظام دولة بلا تغيير ؟ ألا يتبدل كل وضع بعد مضى زمن بعينه ، ويصبح من ثم كل دستور قديم سبباً لآلاف الشرور ، لأنه لم يعد يلائم حالة الشعب فى وقته الحاضر ؟ أخشى أن تكون مؤاتاة هذه الحقوق القديمة ناشئة من أنها ذات مهارب تمكن الماكر وذا السلطان ، من أن يستتر وراءها أو يتسلل منها ، أضراراً بالشعب ، وإيذاءاً للمجموع .

إجمنت : وهذه التغييرات التحكمية ، وهذه التدخلات غير المحدودة من أسمى سلطة ، أليست نذراً بأن واحداً يريد أن يفعل ما لاينبغى أن يفعله الألوف ، يريد أن يملك وحده من الحرية ما يرضى رغباته جميعاً ، وينفذها جميعاً ؟ وإذا نحن وثقنا كل الثقة بملك طيب حكيم ، أيضمن هو ألا يأتى بعده ، من يحكم من دون اكتراث أو رعاية ؟ ومن يقينا عندئذ من استبداد كامل ، إذا هو ابتعث إلينا خدامه ، والأدنين منه ، ليحكمونا على هواهم ، وعلى جهل بالبلاد وحاجاتها ، وليمضوا فى سياستهم من دون مقاومة ، فيعرفوا كيف يتحللون من كل تبعة .

ألبا : (الذى يتلفت حوله فى تلك الأثناء كرة أخرى) ليس ما هو أكثر انسجاما مع طبائع الأشياء من أن يرى ملك أن يحكم بنفسه ، وأن يختص بأوامره من هم أفهم له ، وأكثر رغبة فى فهمه ، ومن ينفذون مشيئته من دون قيد ولا شرط .

إجمنت : ومثل ذلك انسجاما مع طبائع الأشياء أن يرغب ابن البلد فى أن يحكمه من ولد ونشأ معه ، ومن يشاطره فهمه للعدل والظلم ، ومن يجد فيه أخا له .

ألبا : ومع ذلك فقد كانت قسمة النبلاء مع هؤلاء الأخوة قسمةً ضيزى .

إجمنت : كان هـذا قبل قرون . وهو يحتمل اليوم . ولا نحسد أصحابه عليه . أما إذا أُرسل أناس جديدون من غير ما داع ليُثْروا على حساب الأمة مرة أخرى ، ورأى الناسُ أنفسهم معرضين لجشع قاس جريء لاضابط له ، فإن ذلك خليق أن يحدث اختماراً ليس من السهل أن يزول من نفسه .

ألبا : إنك تجابهنى بما لاينبغى أن أسمعه . وأيضاً فإنى أجنبى .

إجمنت : إن توجيهى إياه إليك يدلك على أننى لا أعنيك .

ألبا : وحتى مع هذا كنت أود أن لا أسمعه منك . لقد ابتعثنى الملك وهو يأمل أن أجد هنا عون النبلاء . والمليك يريد أن تنفذ إرادته . وقد رأى بعد إعمال الفكر ما يصلح للشعب . فالأمور لا يمكن أن تبقى أو تسير على هذا المنوال . ونية الملك تتجه إلى الحد من حرية الناس لمصلحتهم ، وأن يفرض عليهم ما ينفعهم فرضاً إذا اقتضى الأمر ، وأن يضحى بالضارين من أبناء البلاد ، ليجد الباقون راحتهم ويستمتعوا بالهناء الذى تتيحه لهم حكومة رشيدة . هذا هوقراره : وقد كلفنى أن أعلنه إلى النبلاء . وإنى أسألك باسمه أن تشير علىّ كيف أؤدى هذا ، لا ماذا أفعل ، فإن هذا قد تقرر .

إجمنت : يؤسفنى أن تجىء أقوالك مبررة لمخاوف الشعب والخوفِ العام . إذن لقد قُرر ما لاينبغى أن يقرره أمير . إنه يريد أن يضعف من قوة الشعب ومن روحه ، ومن إيمانه بنفسه ، ويذلها جميعاً ، ويقضى عليها ليستطيع أن يحكمه وهو مطمئن . إنه يريد أن يقضى على صميم كِيانه ، وفى نيته على التحقيق أن يجعله أسعد حالا مما هو . يريد أن يجعله عدما ، ليجعل منه شيئاً ، شيئاً آخر . فإذا كان الملك حسن النية فالطريقة التى اختيرت لتحقيقها لاشك خاطئة . إن الملوك لا تقاوم لكنما يَعترض المرء الملك الذى يخطو الخطوات المشئومة الأولى للسير فى غير الطريق السوى .

ألبا : يلوح لى مما يجول فى ذهنك أن من العبث أن نحاول الاتفاق . إنك لتستهين بالملك وتزدرى نصحاءه ، إذا أنت شككت فى أن كل شىء لم يُفكر فيه ولم يبحث ولم يدرس . فلم أكلف أن أبحث مرة أخرى فيما يجب ومالايجب ، وإنما أطلب الطاعة من الشعب ، ومنكم أنتم زعمائه ، وأنبل من فيه . أطلب النصيحة والعمل ضمانا لهذا الواجب المفروض .

إجمنت : اطلب أعناقنا تَنْتَهِ منا دفعة واحدة . فسيان عند النفس النبيلة طأطأتُ الرأس تحت النير أو حَنَيْته تحت فأس الجلاد . وقد ذهب كل ما قلت سدى ولم أَعْدُ أن حركت به الهواء فذهب هباء .

(يأتى فرديناند)

فرديناند : عفواً أن قطعت حديثكم . هذا خطاب يلح حامله فى طلب الجواب .

ألبا : اسمح لى أن أطلع عليه (ينحى جانباً) .

فرديناند : (لإجمنت) إنه جواد جميل ذلك الذى أحضره رجالك لعودتك .

إجمنت : ليس بأردء جواد . قد استبقيته فترة وأرى أن أتخلى عنه . فإذا راقك فلم نعقدنا الصفقة .

فرديناند : حسناً سنرى (ألبا يومئ إلى ولده الذى ينسحب إلى المؤخرة) .

إجمنت : أستودعك الله ، وأذن لى فى الانصراف . فإنى لا أعلم بالله ما أقول فوق الذى قلت .

ألبا : لقد حالت الصدفة لحسن حظك دون الكشف عما تبقى من أفكارك . وقد بسطت فى غير ما حذر طيّات قلبك ، واتهمت نفسك بأصرم مما كان يفعل خصم حقود .

إجمنت : هذه اللائمة لا تمسنى فإنى بنفسى جد عليم . عارف مبلغ ولائى للملك أكثر كثيراً من كثيرين يخدمون أنفسهم فى خدمته . وإنى على الرغم منى أخرج من هذا النضال من دون أن أسويه . وأتمنى فقط أن توفق بيننا قريباً خدمة السيد وخير البلاد . ولعل حديثاً معاداً وحضرة أمراء ينقصوننا اليوم ، ينفع كلاهما فى لحظة أسعد من هذه ، ويكون له من الأثر ما يعز اليوم . بهذا الأمل أنصرف .

ألبا : (الذى يعطى ولده فرديناند إشارة فى نفس الوقت) — قف يا إجمنت ! سيفك — (ينفتح الباب الأوسط . فيرى الرواق يحتله الحرس الذى يبقى فى مكانه) .

إجمنت : (الذى يظل برهة صامتاً دهشاً) إذن كان هذا قصدك . من أجل هذا استدعيتنى (ينتضى سيفه كما لو كان يريد دفاعا عن نفسه) أأبتُّ بلا حماية ؟

ألبا : أمر الملك . وأنت أسيرى . (يدخل على الأثر رجال مسلحون من الجانبين) .

إجمنت : (بعد سكون) الملك ؟ — أورانيان ! أورانيان ! (ثم يسلم سيفه بعد برهة قائلا) إذن خذه . لقد طال ما دافع عن قضية الملك أكثر مما حمى هذا الصدر (يخرج من الباب الأوسط يتبعه المسلحون الموجودون فى الغرفة وبالمثل ولد ألبا . ويظل ألبا واقفاً وتنزل الستار) .

الفصل الخامس

شارع

الوقت وقت السحر

كلارا . براكنبرغ . أهالى

براكنبرغ : حبيبتى ، بحق السماء . ماذا تنتوين ؟

كلارا : تعال معى يا براكنبرغ . لا بد أنك تجهل الناس . سنخلصه من غير شك ، وإلا فماذا يعدل حبهم إياه ؟ كل منهم — وأقسم على ذلك — يحس فى نفسه باللهفة المتقدة على إنقاذه ، ودرء الخطر عن حياة غالية ، ورد الحرية إلى سيد الأحرار . تعال ، أفلا ينقص إلا الصوت الذى يجمعهم ، ولا يزال دينه عليهم يعمر صدورهم ! فهم يعلمون أن ساعده القوى وحده هو الذى يدفع عنهم غائلة الدمار . فمن أجله وأجل أنفسهم يجب أن يقدموا على كل شىء . وما عسانا أن نقدم عليه ؟ الحياة التى لا تستحق أن يحافظ عليها إذا هو قضى . هذه الحياة هى أكثر ما نبذل .

براكنبرغ : أيتها المنكودة الحظ . ألا ترين القوة التى نرسف فى أغلالها المكينة .

كلارا : لا تلوح لى مما لا يمكن التغلب عليه . لندع الكلام طويلا بهذا القول الذى لا يجدى . ها هم أولاء بعض الرجال المسنين الشرفاء الشجعان . اسمعوا أيها الأصدقاء . اسمعوا أيها الجيران . خبرونى عن إجمنت .

المعلم النجار : ماذا تريد الطفلة ؟ أسكتها .

كلارا : اقتربوا لنتكلم فى رفق إلى أن تتحد كلمتنا ونصبح أقوى مما نحن الآن . فليس يجوز لنا أن نفوت على أنفسنا لحظة واحدة . إن الظلم الوقح الذى يتجرأ على تقييده ، يهز الخنجر لقتله به . أيها الأصدقاء ! إن كل خطوة يخطوها الشفق تزيد فى ارتياعى وإنى لأخشى هذه الليلة . تعالوا . سنوزع أنفسنا ، ونعدو من حى إلى حى ، نستصرخ القوم . ولينتض كل منكم سلاحه القديم ، وليكن فى السوق تلاقينا ، وليجرف تيارنا معه كل من

يصادفه . عندئذ يجد الأعداء أنفسهم ، وقد أحدقنا بهم ودهمناهم وسحقناهم . وماذا يستطيع لنا حفنة من العبيد ؟ ثم إنه وهو فى وسطنا ، وقد عاد طليقاً ، يستطيع أن يشكرنا مرة ، نحن الذين ندين له بالشىء الكثير . لعله يرى ، بل إنه على التحقيق سيرى مطلع النهار ثانية ، وقد خضبت السماء حمرته .

المعلم النجار : ما بك يا فتاتى .

كلارا : أترا كم أسأتم فهمى؟ إنى أتحدث عن الكونت . إنى أتحدث عن إجمنت .

يتر : لا تلفظى هذا الاسم ، إنه مهلك .

كلارا : لا أذكر هذا الاسم ؟ كيف ؟ ومن ذا الذى لا يذكره فى كل مناسبة ؟ وأين لا تجدونه مسطوراً ! لقد طالما طالعته بأحرفه كلها فى هذه النجوم . أفلا أذكره ؟ ما معنى هذا ؟ أيها الأصدقاء ! أيها الجيران الطيبون الأعزاء ! إنكم تحلمون . أفيقوا . لا تنظروا إلىّ محملقين مرتاعين هكذا ! ولا تتلفتوا وجلين هنا وها هنا . إنما أطلب إليكم ما يتمناه كل منكم . أليس صوتى هو صوت قلوبكم ؟ من ذا الذى لا يركع على ركبتيه فى هذه الليلة المخوفة ليسترده بالصلاة الحارة من السماء ، قبل أن يصعد إلى سريره المؤرق ؟ سلوا بعضكم بعضاً . وليسأل كل منكم نفسه . فمن ذا الذى لا يردد بعد ذاك ورائى : « حرية إجمنت أو الموت » .

يتر : اللهم احفظنا . إن مصابا سيقع .

كلارا : ابقوا . ابقوا . ولا تتفرقوا من سماع اسمه . وقد كنتم قبل الآن تتزاحمون عليه مبتهجين . حين كان مقدمه يعلن ، وحين كان يقال إجمنت آت ، إنه آت من غنت ، كان السكان فى الشوارع التى يخترقها إجمنت راكباً يعتدون أنفسهم سعداء . وحين كنتم تسمعون خشخشة جياده ، كان كل منكم يطرح عمله ، وتشرق وجوهكم المهمومة المطلة من النوافذ بالنظرة من محياه ، كشعاع الشمس ، تبعث الغبطة والأمل . كنتم إذ ذاك ترفعون أطفالكم على عتبة الباب فى الهواء ، وتشيرون إليهم قائلين : « انظروا ها كم إجمنت ! أعظم الجميع ! إنه هو من يرجع إليه الفضل فى انتظاركم أياما خيراً من التى عاشها آباؤكم المساكين » فلا تدعو أطفالكم يسألونكم يوما : أين ذهب إذن ، وأين الأيام التى كنتم تعدون ؟ — هكذا نتساجل القول ونتلكأ ونخونه .

سوست : إلا ما خجلت يا براكنبرغ ! لا تدعها تتمادى . ادرأ الشر .

براكنبرغ : حبيبتى كلارا فلنذهب . ما عسى أمك أن تقول . ربما —

كلارا : أتعنى أننى طفلة أو بلهاء ؟ ما معنى ربما . — أتذهب بى عن هذا اليقين المرعب من غير أمل — ينبغى أن تستمعوا لى وستستمعون . ذلك أنى أُدرك خيركم . إنكم مرتبكون ولا تستطيعون أن تتمالكوا أنفسكم . ارجعوا البصر خلل هذا الخطر القائم إلى الماضى ، إلى الماضى القريب ، ثم ولوا أفكاركم شطر المستقبل . أفتستطيعون أن تعيشوا حين يلحق به هوالدمار ؟ إن أخرى نسمات الحرية لتلفظ فى أنفاسه . أفتعلمون كم كان لكم ؟ وفى سبيل من أسلم نفسه إلى الخطر الداهم ؟ لقد دميت جراحه واندملت من أجلكم . إن النفس الكبيرة التى حملت عبئكم جميعاً باتت رهن السجن تحوم حولها غائلة القتل . ولعله يفكر فيكم الآن ويحدوه الأمل من أجلكم ، وهو من ألف أن يعطى وأن ينجز .

المعلم النجار : تعال يا صديقى !

كلارا : ليست لى ساعد مثل ساعدكم ، ولا قوة مثل قوتكم . لكن لى ماينقصكم أجمعين : عندى الشجاعة والقدرة على احتقار الخطر . كانت أنفاسى خليقة أن تلهبكم ، وكنت خليقة أن أضمكم إلى صدرى فأدفئكم وأحيى مواتكم . فتعالوا . فإنى أريد أن أسير بينكم . — كالعلم يقود جيشاً نبيلا من المحاربين يرفرف فوقهم . أريد أن تندلع روحى حول رؤوسكم لهيباً ، وأن يؤلف الحب والإقدام بين الشعب المتردد الشتيت فيجعلَ منه عسكراً لجبا .

يتر : نحها جانباً ! إنى أرثى لها (ينصرف الأهالى) .

براكنبورغ : كلارا ! ألا ترين أين نحن ؟

كلارا : أين ؟ تحت السماء التى طالما تبدت قبتها فى مظهر مجيد يوم أن كان النبيل يسير تحتها . من هذه النوافذ كانوا يطلون : أربعة رؤوس أو خمسة بعضها فوق بعض . وبهذه الأبواب كانوا يجتمعون ويَحنون الرؤوس حين كان يتفضل بالنظرة على هؤلاء الجبناء . ما كان أحبَّهم إلىّ حين كانوا يجلونه . ولو كان طاغية لتحاشوا طريقه لكنهم كانوا يحبونه . — أيتها الأيدى التى كنت ترفعين القبعاتِ احتراما ، أراك لا تستطيعين انتضاء السيوف .

براكنبورغ ! — ونحن ؟ — أنلومهم — هذه السواعد التى طالما أمسكت به ماذا يسعها أن تفعل له . — لقد نال المكر من الدنيا الكثير . — وأنت تعرف الطرقات والمعابر ، وتعرف القصر القديم . وليس فى الدنيا مستحيل فأَشِرْ على بشىء .

براكنبورغ : حين نؤوب إلى البيت .

كلارا : حسناً .

براكنبورغ : هناك عند المنعطَف حرس ألبا . فدعى صوت العقل ينفذ إلى قلبك . أفتحسبينى جبانا ؟ ألا تعتقدين أننى أموت من أجلك ؟ . كلانا هنا مجنون ، أنا وأنت على السواء . ألا ترين المستحيل ؟ تمالكى نفسك فأنت لست فى وعيك .

كلارا : لست فى وعيى ! ! يا للفظاعة ! براكنبورغ ! أنتم الذين لا تعون ، إذ كنتم حين مقدمه تكرِّمون البطل عالياً ، وتدْعُونه صديقكم وحاميكم ومعقد رجائكم ، و إذ أنا واقفة فى ركنى أفتح النافذة نصف فتحة ، وأختفى وراءها أسترق السمع ، وقلبى يخفق بأشد من خفقان قلوبكم أجمعين . و إنه الآن ليخفق أكثر مما تخفق قلوبكم . أتختبئون فى ساعة الضيق وتنكرونه ، ولا تشعرون بأنكم — حين يهلك . تهلكون ؟

براكنبورغ : هيا إلى البيت .

كلارا : إلى البيت !

براكنبورغ : أفيقى وانظرى حولك . هذه هى الشوارع التى لم تكونى تطئينها إلا أيام الآحاد ، والتى كنت تسيرين فيها محتشمة إلى الكنيسة ، فتغضبين للفضيلة وتبالغين فى الغضب حين ألحق بك فيها محيياً بكلمة ودودة . إنك تقفين فيها الآن ، وتخطبين ، وتعملين فيها أمام الملأ أجمعين . أفيقى أيتها الحبيبة . فماذا ينفع ذلك ؟

كلارا : إلى البيت . أجل إنى أفيق . فهيا يا براكنبورغ إلى البيت . أتعرف أين موطنى ؟ (ينصرفان) .

السجن

يضيئه مصباح وفى مؤخرته سرير

إجمنت وحده

أيها الصديق القديم ! أيها النوم الذى والانى دائماً . أتهجرنى أنت أيضاً كما هجرنى سائر الاصدقاء . كَمْ هبطتَ راضياً فوق رأسى الحر ، ولطفتَ سالفى كإكليل الريحان

الجميل المنطوى على الحب . كم رقدتُ فى أحضانك ، فى حومة الوغى ، وموجة الحياة ، أتنفس فى راحة كالطفل السعيد . وحين كانت العواصف تصفر بين الغصون ، والأوراق والفروع تئز ، والاعالى تهتز ، لم تكن السكينة تزايل القلب وصميم الفؤاد . فما الذى يهزك الآن . ما الذى يزعزع الوجدان الثابت الأمين ؟ أشعر بالمصاب . إنه وقع فأس الفناء ، تجتثنى من الجذور ؛ ولا أزال على قدمى ، يقشعر بدنى . إنها القوة الخؤون تتغلب علىّ ، وتقوض الجذع الثابت العالى . فقبل أن يجف اللحاء ينهد عاليك ، ويتحطم .

أنت يا من طالما أزحت الهموم الرازحة عن صدرك وبددتها كما تتبدد فقاقيع الصابون ! لماذا تعجز الآن عن طرد الخاطر الذى لا ينفك يجول ويصول فى رأسك ؟ متى ألفيت الموت مخيفا ؟ أنت الذى كنت تعيش مع صوره المتنوعة هادئا كما تعيش مع أنماط الناس . ليس السجن بالعدو العاجل الذى يشتهيه الصدر السليم ويسعى جاهداً إليه ؛ فالسجن أنموذج للقبر يبغضه البطل والرعديد على السواء . لم أك أطيق جلستى فوق المقعد الوثير فى مجلس الحكم ، والأمراء يبدئون ويعيدون فى الأمر البسيط ، وكان خليقاً أن يفصلوا فيه على أهون سبيل . كنت حين أضيق بالمكان وينقبض صدرى لقتامة الجدران أعجل بالانصراف ما أمكن الانصراف ، وأبادر إلى امتطاء جوادى نشطا أتنفس الصعداء ، إلى حيث المكان الذى خلقنا له . إلى الميدان الذى نصيب من أرضه ما يرتفع إلينا من طيبات الطبيعة ، ويهب من سمائه ما يهبط علينا من بركات النجوم . حيث نشب من مس أمنا أصلب عوداً كالمارد الأرضى ، وحيث نحس البشرية فى كل جارحة فينا ، وتطغى علينا شهوات الإنسان ، وحيث تستعر فى نفس القناص الفتى الرغبة فى الإقدام والظفر والقنص والضرب والاستحواذ والفتح . وحيث يغتصب الجندى حقه الموروث فى الدنيا بأسرها مسرعا ، ويطلق لنفسه العنان مستبيحا باطشا منطلقا كالبرَد العاصف ، مخربا فى المرج والحقل والغاب ، لا يصده صاد .

إنك صورة فحسب ، وحلم يذكر بالهناء الذى سعدت به طويلا . فإلى أين ساقتك خيانة القدر ؟ أو يأبى أن يعجل إليك فى وضح النهار بالموت الذى لم تهبه قط ، ليذيقك فى الطين المهين طعم الرَّمس ؟ ما أبشع أنفاسه التى تهب علىّ من هاته الحجارة . إن الحياة تغيضُ ، والقدم تتراجع أمام هذا السرير كما تتراجع أمام القبر .

أيها الهم الذى تشرع فى القتل قبل الأوان ، حل عنى . فمتى كان إجمنت فى هذه الدنيا

وحيداً ، لا سند ولا عون ؟ إن الشك لا الهناء هو الذى يفقدك الشعور . هل اختفت عدالة الملك التى آمنت بها طيلة حياتك ، وخبت صداقة الوصية التى قاربت أن تكون حبا ؟ — ولك أن تقولها لنفسك — ، كما تنطفئ النار الساطعة فى جوف الليل دفعة واحدة ؟ أخلفتك كلتاهما وحدك فى الطريق المظلم ؟ ألا يقدم أورانيان على رأس أصدقائك لخلاصك ؟ ألا يتجمع الشعب ويسعى بالقوة الجائشة إلى إنقاذك ؟

أيتها الجدران التى تحتجزيننى ، لا تمنعى عنى تلك الأرواح الغفيرة التى تتدافع نحوى تريد لى الخير ، وتلك الشجاعة التى كانوا يستمدونها منى وتفيض بها عيناى : لتعد الآن من قلوبهم إلى قلبى . بلى إنهم يتحركون ألوفا . إنهم آتون ليقفوا إلى جانبى . إن أمانيهم الحارة تتصاعد عجلى نحو السماء ترجو المعجزة . فإذا لم ينزل ملك لخلاصى فسيتناولون الحراب والسيوف لإنقاذى . إن الأبواب تنشق ، والأسيجة تتحطم ، والسور يندك تحت أيديهم ، وحرية النهار الطالع تلاقى إجمنت مغتبطا ، وغير وجه أعرفه يستقبلنى مهللا . آه يا كلارا لو أنك رجل لكنت فى طليعة الآتين ، ولشكرت لك الحرية التى يشق أن أحمدها لملك .

بيت كلارا

(تأتى كلارا تحمل مصباحا وقدحا من الماء من الغرفة فتضع القدح على المائدة ، وتتقدم إلى النافذة)

كلارا : براكنبرغ ؟ أهذا أنت ؟ ماذا سمعت إذن ؟ لا أحد بعد ؟ لم يكن أحد هناك . أريد أن أضع المصباح على النافذة ليرى أننى لا أزال يقظى ، وأننى مازلت أنتظره . لقد وعدنى خبراً . خبراً ! إنه اليقين المرعب . لقد حكم على إجمنت . فأية محكمة تملك أن تطلبه ؟ ثم هم يدينونه . أيدينه الملك أم الدوق ؟ وتتنصل الوصية ، أو يتردد أورانيان وسائر أصدقائه جميعاً ؟ أهذه هى الدنيا التى سمعت الكثير عن تقلبها ، وعدم الركون إليها ، ولم أشعر بهما . أهذه هى الدنيا ؟ من ذا الذى يبلغ من شره أن يعادى العزيز ! أبلغ من سلطان الشر أن يسقط سريعا ذلك المعترف بين الكافة بفضله ! أجل إن هذا هكذا . هكذا ! أىْ إجمنت ! كنت آمن عليك أمام الله والناس كما آمن عليك بين ذراعى . فماذا كنت لك ! لقد تملكتنى ، وجعلتُ حياتى فداء لك . فمن أنا إذن ؟ عبثا أمد يدى إلى الحبالة التى ترتهنك . أنت بلا معين ، وأنا طليقة . — ها هو ذا مفتاح بابى . إنى أروح وأغدو على هواى ولا أملك شيئا لك — ألا فلتقيدونى

حتى لا يتملكنى اليأس ! القوا بى فى غيابة السجون ، لأضرب رأسى بالحيطان الرطبة ، وأتلهف على الحرية ، ولأحلم كيف وددت أن أُعينه ، وكيف كنت أساعده لو لم يشلنى القيد . — لكنى طليقة ، وفى حريتى يكمن خوفى من العجز — أعجز عن أن أحرك عضواً لمساعدته شاعرة كل الشعور بذلك . وآ أسفاه . إن ذلك الجزء الصغير من كيانك ، كلارا التى هى ملكك ، سجينة مثلك . تعتلج بعيدة منك قواها الأخيرة فى تشنيجة الموت . — أسمع تسللا وسعالا — براكنبرغ — إنه هو — أيها الرجل المسكين الطيب ، إن مصيرك واحد لن يتغير . إن حبيبتك تفتح لك الباب الليلى ولكن لأى لقاء مشئوم .

يظهر براكنبرغ

كلارا : أراك ممتقعا وجلا يا براكنبرغ . فما وراؤك ؟

براكنبرغ : لقد طلبتك وأنا ألف وأدور وأتعرض للأخطار . إن الشوارع الكبرى محتلة ، وقد تسللت إليك من الأزقة والزوايا .

كلارا : قُصَّ علىّ . ما هنالك ؟

براكنبرغ : (يجلس) آه يا كلارا دعينى أبكى . لم أكن أحبه . كان الرجل السرى ، فاستهوى الحَمَل الوحيد الذى يملكه الفقير إلى مرعى أطيب . ما لعنته قط ، فقد خلقنى الله مخلصا رقيقا . كانت حياتى تنضب فى الألم ، وكنت أرجو الضنى كل يوم .

كلارا : إنس هذا يا براكنبرغ . إنس نفسك . حدثنى عنه . أحقا أنه حُكم عليه ؟

براكنبرغ : أجل . أعلمه علم اليقين .

كلارا : ولا يزال حيا ؟

براكنبرغ : نعم يعيش .

كلارا : أنّى لك أن تؤكد هذا ؟ فالظلم يفتك بالسَّنِىّ فى بهمة الليل ، فيسيل دمه خفية عن الأنظار جميعا . والشعب المذهول مذعور فى نومه يحلم بالخلاص . يحلم بتحقيق أمنيته الواهنة . فى تلك الأثناء تودع روحه الدنيا كارهة . لقد صعدت روحه إلى بارئها . فلا تخدعنى ولا تخدع نفسك .

براكنبرغ : كلا . إنه يعيش — ويدعو إلى الأسف أن الأسبان الذين يريدون سحق الشعب يعدون له مسرحية مرعبة تحطم إلى الأبد كل قلب يهفو إلى الحرية .

كلارا : إمض فى كلامك وأصدر هادئا حكم الموت علىّ . فإنى أقترب من تلك البقعة السعيدة شيئا فشيئا ، وأستروح العزاء من أرض السلام . تكلم .

براكنبورغ : لقد وسعنى أن ألحظ على الحراس من كلام جرى هنا وههنا أن فى السوق شنيعة تعد فى الخفاء . وقد تسللت من الأزقة ، ومن طرق معروفة إلى بيت ابن عمى لأطلع على السوق من نافذة خلفية . — كانت المشاعل تهب وتندلع ألسنتها رائحة غادية فى دائرة واسعة من جند الأسبان . فدققت النظر فيما لم تألفه عينى فبرزت لى من جوف الليل صقالة سوداء فسيحة عاليـة . فاقشعر بدنى لهذا المنظر . وكان كثيرون منهمكين حولها يجللون كل أبيض واضح من خشبها بقماش أسود و يلفونه فيه . وقد أبصرتهم أيضاً يجللون الدرج أخيراً بالسواد فكأنهم يأخذون فى إعداد احتفال بضحية بشعة . وقد ثبتوا فى ناحية صليباً أبيض كان يلتمع كالفضة فى الليل الحالك ورفعوه عالياً . رأيت اليقين المرعب ، وازداد يقينى به . وكانت المشاعل تترنح فلم تلبث أن خبت تدريجاً وانطفأت ، فعاد الرعب الذى تمخض عنه الليل إلى بطن أمه ، وطواه الظلام .

كلارا : كفى يابراكنبورغ . والزم الصمت ودع هـذا القناع يسترنى . لقد توارت الأشباح . وأنت أيها الليل الرفيق أعر عباءتك تلك الأرض التى تختمر ، فلن تحتمل طويلا ذلك العبء البغيض . ستتفتح شقوقها العميقة بما يرعب النفس وتَنْدكّ فيهـا صقالة الموت . سيرسل الله ملكا ما تسىء إليه الأرض لتشهده على سورتها . وستنحل المزالج والروابط لِمَسّه الطاهر ، ويحيط الصديقَ بهالة من النور الشفيق . سيقوده فى الليل إلى الحرية فى حنو وسكون . وسيكون سيرى أيضاً فى هذه الظلمة خفية لألقاه .

براكنبورغ : (محتجزاً إياها) . إلى أين ياعزيزتى ؟ إلى أين تجرئين ؟

كلارا : اخفض صوتك ياعزيزى فلا يستيقظ أحـد ، ولا ننتبه نحن أيضاً . أتعرف هذه القنينة يابراكنبورغ ؟ لقد انتزعتها منك مازحة ، وأنت تهدد بالموت العاجل كلما عيل منك الصبر ، وكثيراً ما عيل — والآن ياصديقى —

براكنبورغ : يا للداهية الدهماء .

كلارا : إنك لا تدفع شيئاً ، فالموت من نصيبى . فامنحنى الموت الرفيق السريع الذى كنتَ أعددتَ لنفسك . ناولنى يدك . — فى اللحظة التى أفتح فيها الباب المظلم الذى

لا رجعة منه . أستطيع أن أقول لك ، ويدى تضغط يدك كما أفعل الآن ، كم كنت أحبك وكم رثيتُ لحالك . لقد مات أخى صغيراً فاخترتك لتعوضنى منه لكن قلبك عارض ، وعذبك وعذبنى ، وأبيت إلا أن يكون لك حاراً ، وحاراً دائما ، مَا لم يقدّر لك . فسامحنى وطب عيشاً . دعنى أناديك بأخى فإنه اسم يجمع الكثير من الأسماء . خذ آخر زهرة جميلة من أزهار الراحلين وقلبك عامر بالوفاء . — تناول هذه القبلة فالموت يجمع الأشتات يا براكنبورغ . وسوف يجمعنا أيضاً .

براكنبورغ : إذن دعينى أشاطرك الممات ، فقاسمينى . فى القنينة الكفاء لإطفاء حياتين .

كلارا : بل عش ! فعليك أن تعيش . وبوسعك أن تعيش — كن إلى جانب أمى التى سوف تضنى من دونك ضنكا . كن لها ما لم أعد أستطيع أن أكون لها بعد الآن . عيشا معاً لتبكيانى ، لتبكيا الوطن ، وتبكيا من كان وحده القدير على صيانه . لن ينجو الجيل الحاضر من مصابه به ، ولن تستطيع سورة الانتقام لنفسها أن تقتلعه . أيها المساكين ! عيشوا العمر الذى لم يعد عمراً . فاليوم تسكن حركة الدنيا دفعة واحدة وتقف دورتها . ونبضى قد لا تستغرق دقاته بضع دقائق أخرى . فالوداع .

براكنبورغ : أما عشت معنا كما نعيش لأجلك وحدك . ستميتيننا بموتك فعيشى وإن تألمتِ . سنقف بجانبك لا نفارقك . والحب كفيل أن يهيئ لك فى أحضانه الجياشة العزاء الجميل ، ويسهرَ عليك . كونى لنا . ولا يجوز أن أقول لى .

كلارا : ترفق يا براكنبورغ . إنك لا تحس ما تمس . فحيثما لاح لك الأمل كان لى عين اليأس .

براكنبورغ : قاسمى الأحياء الرجاء . ايأسى عند حافة الهاوية . وانظرى إلى الغور البعيد ، ثم ارجعى البصر إلينا .

كلارا : لقد تغلبت — فلا تسترجعنى إلى النضال .

براكنبورغ : إنك مذهولة يطويك الليل ، وتطلبين الاعماق . ولم ينطفىء كل نور بعد ، ولا يزال هناك نهار .

كلارا : واهاً لك ! واهاً لك ! إنك تمزق الستر عن عينى فى غير ما رحمة ولا شفقة ! أجل سيطلع النهار . سيحاول أن يجتذب من حوله الضباب لكنه سيطلع رغم

أنفه . سيطل المواطن من نافذته جزوعا ، وسيخلف الليل بقعة سوداء . سيطل فترعبه المقصلة وهى تزداد فى الضوء وضوحا . سيرفع الإنسانُ المخلوقُ على مثال الرحمن ، بصره إلى خالقه ضارعا إليه من الألم الجديد . لن تجرأ الشمس على الارتفاع حتى لا تسجل الساعة التى يموت فيها . إن العقربين يجريان مجراهما متباطئين والساعة تدق تلو الساعة . مهلًا . مهلًا . الآن حان الحين . والآن يدفع اقتراب الصبح إلى القبر . (تتقدم إلى النافذة وتتظاهر بأنها تتلفت حولها وتتجرع خفية) .

براكنبورغ : كلارا ! كلارا !

كلارا : (تذهب إلى المائدة وتشرب ماء) هاك البقية . إنى لا أغويك . فافعل ما شئت . وداعا . أطفئ هذا المصباح فى سكون ولا تتردد ، فإنى أتوجه إلى النوم ، تسلل إلى الخارج فى رفق ورد الباب وراءك فى سكون ، ولا توقظ أمى . اذهب وانج بنفسك . انج بنفسك ، إذا شئت أن لا يُشتبه فى أنك قاتلى (تتصرف) .

براكنبورغ : إنها تتركنى لآخر مرة شأنها فى كل مرة . ليت نفساً بشرية تشعر كيف تستطيع أن تمزق قلباً محباً . إنها تتركنى واقفاً ، تتركنى لنفسى . والموت والحياة كلاهما بغيض إلىّ . تموت وحدها . — أذرفوا الدمع أيها العاشقون ، فليس أقسى من مصيرى . إنها تقاسمنى شراب المنون وتطلق سبيلى . تقصينى عن جوارها . تجذبنى إليها ، وتردنى إلى الحياة . ما أغلى ما تصيب يا إجمنت . إنها تسبقك وإكليل النصر الذى تتلقاه من يدها هو إكليلك . إنها تأتى إليك بالنعيم كله — هل أتبعها ؟ وانزوى ثانية بعيداً منهما ؟ وأحمل إلى تلك المنازل العلية حسداً لاينطفئ ؟ — لم يعد فى الأرض مكان لى . والجحيم والنعيم سواء فيما يبذلان لى من عذاب . ما أحرى التعيس بأن يرحب بيد الرعب يمدها إليه الفناء .

(براكنبورغ ينصرف ويظل المسرح لحظة كما هو . ثم تبدأ موسيقى ترمز إلى موت كلارا والمصباح الذى نسى براكنبورغ أن يطفئه ، يندلع لهيبه مرات ثم ينطفئ . ثم يتحول المسرح إلى) :

السجن

(إجمنت يرقد نائماً فوق السرير . ثم إذا بصليل مفاتيح يسمع ، وإذا بالباب يفتح ويدخل منه خدم بالمشاعل ، وفرديناند ابن ألبا من ورائهم ومعه سيلفا يصحبهما رجال مسلحون . إجمنت يهب من نومه) .

إجمنت : من أنتم يا من تطردون النوم من معاقد أجفانى غير محتشمين ؟ ماذا تعلن

إلىّ نظراتكم المتحدية القلقة ؟ ولماذا هذا المشهد المخيف ؟ أى حلم مرعب تقصون على النفس بهتانا وهى لم تستكمل يقظتها بعد ؟

سيلفا : أرسلنا إليك الدوق لنعلن إليك الحكم .

إجمنت : وهل أحضرتم الجلاد أيضاً لتنفيذه ؟

سيلفا : اسمعه تعلم ماذا ينتظرك .

إجمنت : هـذا بكم خليق و ببدايتكم المعيبة . دبرت بليل ونفذت بليل . ظلم جرئ يوارى عن العيان . تجاسر وتقدم يا من تحمل سيفك متواريا تحت عباءتك ! هاك رأسى أغلى ما انتزع الظلم من جسمى وأعظمه حرية .

سيلفا : أنت واهم . ما يقرره قضاة عدول لايتهيب وجه النهار .

إجمنت : هكذا تتجاوز القحة كل فهم وكل فكر .

سيلفا : (يتناول الحكم من أحد الواقفين وينشره ويأخذ فى تلاوته) « باسم الملك و بمقتضى السلطة الخاصة المخولة لنا من جلالته بالقضاء فى رعاياه جميعاً أيا كان مقامهم . سواء فى ذلك فرسان الفروة الذهبية أو غيرهم ، قد اتضح — .

إجمنت : أيستطيع الملك تخويل هذه السلطة ؟

سيلفا : « قد اتضح لنا بعد تحقيق قانونى سابق واف أنك يا هنرى كونت إجمنت و برنس دى جور مدين بالخيانة العظمى . وقد أصدرنا حكمنا ، بأن تقاد فى باكورة النهار الطالع ، من الحياة إلى الموت ، أمام أعين الشعب لتكون عبرة لكل خائن . صدر فى بروكسل فى (يقرأ رقم السنة فى غمغمة بحيث لايستبينها السامعون) . فرديناند دوق ألبا ورئيس محكمة الاثنى عشر

فالآن قد علمت مصيرك . وليس لديك إلا القليل من الوقت للاستعداد له ، وطلب آل بيتك ، وتوديع ذويك (ينصرف سيلفا ومعه الحاشية ويتخلف فرديناند ومعه مشعلبان . تكون الإضاءة فى المسرح معتدلة) .

إجمنت : (يقف برهة ساكناً غارقا فى الفكر ويترك سيلفا يمضى دون أن يلتفت، ويعتقد أنه وحده . لكنه إذ يرفع عينيه يبصر ابن ألبا) أتقف وتتخلف ؟ أتريد أن يزيد وجودك فى عجبى ، وفى

ارتياعى ! أتريد أن تحمل إلى والدك رسالة موموقة فتبلغه أنى عدمت الرجولة فى يأسى ؟ اذهب ! اذهب وقل له — ! قل له إنك لا تخدعنى ولا تخدع العالم بكذبك . لهذا الرجل الطموح سيقولها الناس من وراء كتفيه همساً ، ثم بصوت مرتفع يزداد ارتفاعا . فإذا ما هبط عن هذه القمة فسوف تصرخ فى وجهه ألف صوت تقول له : لم يكن صالح الدولة ولا هيبة الملك ولا أمن الأقاليم ما أتى به إلى هـذا المكان . إنه من نفسه قد نصح بالحرب ليكون للمحارب فى الحرب السلطان . لقد آثار هذه الفوضى الطاغية ليكونوا بحاجة إليه . وإنى لأسقط ضحية بغضائه الحقيرة ، وحسده الوضيع . أجل أعلم ذلك ولى أن أقوله . فالواقف على عتبة القبر ، والجريح بالجرح المميت من حقه أن يقوله . فقد حسدنى المغرور ، وفكر ودبر طويلا فى اجتثاثى . كان فى سالف الزمان ونحن أصغر مما نحن الآن ، نلعب بالنرد ، وتنهار إلى ناحيتى أكوام الذهب كوما بعد كوم — كان يقف مغيظا ، يصطنع الهدوء ، ويأكل قلبه الحقد على حظى أكثر مما يأكله السخط من خسارته . ما أزال أذكر تلك النظرة القداحة بالشر والامتقاعَ المنطوىَ على الغدر ، حين كنا نتبارى فى الرماية فى حفل رسمى أمام ألوف مؤلفة من الناس . فقد طلبنى إلى منازلته ووقفت الأمتان وجهاً لوجه : الأسبان وأبناء الأراضى الواطئة تتباريان وتتمنيان . وتغلبت عليه إذ طاشت رصاصته وأصابت رصاصتى ، فشق هتاف أنصارى عنان السماء . لـكن رَمْيَته الطائشة لم تخطئنى . قل له إنى عليم بما هنالك ؛ عليم به هو ؛ وإن الدنيا تحتقر كل ظفر تختلسه النفس الحقيرة . أما أنت فإذا كان ممكناً أن لا تكون للابن طباع أبيه ، فاستشعر الحين بعد الحين ذلك الخجل الذى تحسه لى ، أنا الذى تود من كل قلبك تبجيله .

فرديناند : أنى أسمعك ولا أقاطعك . إن ملامك ينزل بى كضربات الهراوة على إحدى الخوذ . أحس بهزها ولا تؤذينى . إنك تصيبنى لـكنك لا تجرحنى . وكل ما أشعر به هو الألم الذى يمزق قلبى . فواها لى ، واهاً لى ! فلمثل هذا المشهد كان نموى ، ولمثل هذه المسرحية كان ابتعاثى .

إجمنت : أتجأر بالشكوى ؟ فمم تشكو وماذا تمضك ؟ أندم متأخر هو ؟ على معاونتك على المؤامرة المخزية ؟ إنك فى ريعان الشباب . ولك طلعة ميمونة . وقد كنتَ ذا ثقة بى . وكنت ودوداً نحوى . كلما رأيتك صفت نفسى لأبيك . لـكنك تستدرجنى إلى الأحبولة

مداجيا كأبيك وأكثر مداجاة من أبيك . أنك للشَّنيع ! من يأمن له يتعرض للخطر . لكن من ذا الذى يخشى خطرا من ثقة بك ؟ أذهب . اذهب . لا تسلبنى اللحظات القليلة . اذهب لأستجمع نفسى وأنسى الدنيا وأنساك أولا .

فرديناند : ما عسانى أن أقول لك ؟ إنى واقف أنظر إليك ، فلا أراك ولا أشعر بنفسى . أينبغى أن أعتذر ؟ أينبغى أن أؤكد لك أنى لم أعلم بنيات أبى إلا متأخرا ، وإلا فى النهاية القصوى ، فكنت مرغما وكنت أداة جامدة لإرادته ؟ وما يجديني أى رأى لك فىّ ؟ إنك مقضىٌّ عليك . وأنا الشقى أقف هنا لأؤكد لك مصيرك ولأرثى لك .

إجمنت : يا له من صوت غريب ، وعَزاء غير منتظر يتلقانى فى طريق إلى القبر . أنت يا ابن عدوى الأول ، بل عدوى الوحيد تقريبا ، ترثى لى ؟ ألست بين قتلتى ، قل تكلم . ماذا أُعدّك ؟

فرديناند : يا لك من أب قاس ! أنى لأتبينك فى هذا الأمر . فقد كنت تعرف قلبى وتفكيرى الذى طالما عِبته بأنى أرثه عن أمى الرحيمة . فلكى تجعلنى على غرارك أرسلتنى إلى هذا المكان . أرغمتنى على رؤية هذا الرجل الواقف على حافة قبر فاغر فاه ، والرازح فى قبضة موت عاسف ، لأحس من رؤيته أعمق الألم ؛ لأصم أذنى عن كل مصير ؛ لأغدو عديم الشعور . وليكن بعد ذلك ما يكون .

إجمنت : عجبا ! هدئ روعك ! قف ! تكلم كما يجمل بالرجل .

فرديناند : ألا ليتنى امرأة . ألا ليت من يقول لى : ماذا يؤثر فيك هذا ، وماذا يعنيك ؟ قل لى شراً أكبر وسوءً أعظم ، اجعلنى شاهدا على فعلة مرعبة أشكرْكَ وأقُلْ لك : لم تفعل شيئا .

إجمنت : أنك تضيع نفسك . فأين أنت ؟

فرديناند : دع هذه السورة تطغى . دعنى أشكو طليقا . لا أحب أن أصطنع الثبات ، وكل شىء فىّ ينهار . أأُريد بى أن أراك هنا ؟ — أنت ؟ — هذا مخيف . أنك لا تفهمنى وهل عليك أن تفهمنى ؟ إجمنت . إجمنت . (يرتمى عليه ويطوق عنقه)

إجمنت : اكشف لى هذا السر !

فرديناند : لا سر .

إجمنت : كيف يؤثر فيك هذا التأثير مصير رجل غريب عنك ؟

فرديناند : لست غريبا . كلا لست غريبا عنى . فاسمك هو الذى كان يرشدنى فى صباى الأول كنجوم السماء . وكثيرا ما كنت أتسقط أخبارك وأتساءل عنك ؛ والطفل يتطلع إلى الشاب ، والشاب إلى الرجل ؛ وهكذا كنت تخطو أمامى . دائما أمامى . فكنت تتقدمنى وكنت أتتبع خطاك دون ما حسد ، ومن دون توقف . وأخيرا أملت أن أراك . ورأيتك فهفا قلبى إليك . لقد قررتك لنفسى ، فلما رأيتك اخترتك من جديد ، ورجوت أن أكون معك وأن أعيش معك . وأن أتعلق بك وأن — لقد قطع كل شىء . فها أنذا أراك هنا .

إجمنت : يا صديق ! إذا كان يرضيك أن تعلم أن نفسى مالت إليك منذ اللحظة الأولى فأنى أؤكده لك . والآن اصغ إلىّ . دعنا نتبادل معا كلمة هادئة . قل لى . أهى إرادة أبيك الجدية الصارمة أن يقتلنى ؟

فرديناند : نعم .

إجمنت : وليس هذا الحكم صوريا أجوف لأرهابى ، والتوسل بالخوف والتهديد لعقابى واذلالى ، ثم رفعى بعد ذلك من الحضيض بعفو ملكى ؟

فرديناند : كلا . ويا للأسف كلا . فقد عللت نفسى بادئ ذى بدء بهذا الأمل الضائع . بل إنى عندئذ أحسست الخوف والألم من رؤيتك على هذه الحال . لكن ها هو ذا الأمر حقيق مؤكد . إن نفسى ثائرة علىّ فمن يسعفنى . ومن يمدنى بالرأى السديد فى التفادى مما ليس منه بد !

إجمنت : إذن أصغ إلىّ . إذا كانت نفسك تلج بك هكذا إلى إنقاذى ، وإذا كنت تستنكر الطغيان الذى يقيدنى ، فنجّنى . إن اللحظات جد ثمينة . وأنت ابن صاحب السلطان . وأنت نفسك ذو سلطان — دعنا نهرب . فأنى أعرف الطرق . والوسائل لا يمكن أن تكون مجهولة عندك . هذه الأسوار فقط و بضعة أميال فقط تبعدنى من أصدقائى . فك هذه القيود . واذهب بى إليهم ، وكن من رجالنا . سيحمد لك الملك يوما إنقاذى ما فى ذلك شك . إنه الآن تحت تأثير الصدمة ، ولعله يجهل كل شىء . إن أباك يتجاسر . وصاحب الجلالة لا معدى له عن إقرار ما حدث ولو روّعه . إنك تفكر ؟ فهلا فكرت لى فى سبيل الحرية ؟ تكلم وأحى أمل الروح الحية .

فرديناند : صه ! صه ! إنك تزيد فى يأسى بكل كلمة من كلماتك . لا مخرج من هنا ولا رأى ولا مهرب . وهذا ما يعذبنى ، ويقبض صدرى ، وينشب فيه مثل الأظفار . لقد حبكت أنا نفسى الشبكة بيدى ، وأعرف عقدها القاسية الوثيقة . إنى أعرف أن كل طريق مسدود أمام الجرأة وأمام الخديعة . وأشعر أنى مقيد بك وبالآخرين جميعا . أو أشكوا ؟ أو لم أحاول كل شىء ؟ ألم أرتم على قدميه ، وأتوسل إليه ؟ إنه أرسلنى إلى هنا ليقضى فى هذه اللحظة على كل شىء فىّ ينبض بالفرح وبهجة الحياة .

إجمنت : فلا نجاة ؟

فرديناند : لا .

إجمنت : (يضرب الأرض بقدمه) . لا نجاة . — يا للحياة الحلوة ! يا لاعتياد الوجود والعمل ، ذلك الاعتياد الجميل المحبوب ! إياك يراد أن أفارق ، وأفارق هادئا وادعا ؟ فى حومة الوغى و بين قعقعة السلاح وفى هزج المعركة ومزجها لم تودعينى وداعا خاطفا . لم تودعينى وداعا عاجلا . ولم توجزى لحظة الفراق . لأنه قدر لى أن أشد على يدك ؛ وأن أحدق كرة أخرى فى عينيك ؛ وأن أشعر بجمالك وقيمتك شعورا شديدا ؛ ثم أن أنتزع نفسى منك مصما ، وأن أقول : اذهبى !

فرديناند : وقدر لى أن أقف بذلك وأن أشهده . وأن لا أستطيع استبقاءك ومنعك . أتكفى الكلمُ للشكوى ؟ أى قلب لا يتمزق لهذه الفجيعة ؟

إجمنت : تمالك نفسك !

فرديناند : أنك تستطيع أن تتمالك نفسك وأن تسير فى خطو وئيد شأن الأبطال ، نزولا على حكم الضرورة . أما أنا فماذا أستطيع ؟ وماذا ينبغى لى ؟ إنك تخضع نفسك وتخضعنا وتعلو علينا . سأعيش بعدك وأفقد نفسى وأنا على قيد الحياة . وقد فقدت نورى فى غبطة المجتمع ولوائى فى حومة الوغى . فالمستقبل لعينى تافه مشوش كدر .

إجمنت : أيها الصديق الشاب يا من يكسبنى إياه مصير غريب ، ويفجعنى مع ذلك فيه ؛ يا من يشعر بالألم من موتى ويألم لى ، انظر إلىّ فى هذه اللحظات . إنك لا تفقدنى . فإن كانت حياتى مرآة طاب لك أن ترى نفسك فيها ، فكذلك موتى سوف يكون هذه المرآة . ولا يكون الناس معاً ، حيث يكونون مجتمعين فحسب ، فإن البعيد والراحل أيضاً

يعيشان معنا . إنى أعيش معك وقد انتهى عيشى مع نفسى . لقد طابت نفسى بكل يوم من أيامى الماضية . وقد قمت كل يوم بواجبى ، كما عيّنه لى ضميرى . وأثمر قيامى بواجبى ثمراً عاجلا . والآن تنتهى الحياة كما كان يمكن أن تنتهى من قبل ، ومن قديم فوق رمال جراڤيلنجن . إنى أكف الآن عن الحياة ، لكنى قد حييت . فأحيى أنت أيضاً يا صديق . ولتطب لك الحياة ولا تهيب الموت .

فرديناند : كان فى وسعك أن تحتفظ بنفسك لنا ، وكان ينبغى أن تفعل ذلك . لكنك قتلت نفسك بيدك . كان العقلاء يتحدثون عنك ، خصوما كانوا أو مريدين . فكنتُ كثيراً ما أسمعهم يختلفون فى قيمتك ، ويطول بهم الجدال . لكنهم كانوا فى النهاية يتفقون . ما كان أحد ليجرؤ على إنكار قيمتك ، لكنهم جميعاً كانوا يرون أنك تسير فى طريق خطرة . ولكم وددت أن أستطيع تحذيرك . أفما كان لك أصدقاء ؟

إجمنت : لقد حُذِّرت .

فرديناند : ولما وجدتُ كل هذه التهم فى ورقة اتهامك نقطة نقطة ، ووجدت أجوبتك عليها ، كنت موفقاً فى التماس العذر لنفسك ، لكنك لم توفق التوفيق الكافى لتبرئة نفسك من التهم .

إجمنت : لندع هذا جانباً . فإن المرء منا يعتقد أنه يدير حياته بيده ، ويقود نفسه بنفسه ! وهو فى هذا يتوجه إلى المصير الذى كتب له غير مصدود ولا مقاوم . فدعنا من التفكير فى هذا ، فما أيسر ما أتخلص من هذه الأفكار . لكن شجننا من أجل البلاد أعظم . وإنه فى هذه المحنة ليُعنى بها أيضاً . فإذا أمكن أن يجرى دمى لخير الكثيرين ، وأن يجلب السلام لأمتى فليجرِ . لكن هذا لن يكون للأسف هكذا . وأليق بالمرء أن ينقطع عن التفكير فيما لم يعد يملكُ فيه التأثير . فإذا استطعت أن تقف سلطة أبيك المدمرة أو تحولها فافعل . فأما وأنت لا تستطيع ولا يستطيعه أحد ، فالوداع .

فرديناند : لا أستطيع الذهاب .

إجمنت : أوصيك برجالى خيراً . فمن أخيار الناس خدم لى . فلا يشتتوا . ولا يشقَوْا . وكيف حال كاتبى ريتشارد .

فرديناند : لقد سبقك . لقد عدوه شريكا فى الخيانة العظمى فقطعوا رأسه .

إجمنت : يا للمسكين ! — وشيء آخر ثم استودعك الله ، فلم أعد أستطيع شيئاً : ومهما يكن الذهن مرهقاً مشغولا فللطبيعة آخر حقوقها غير مدافعة . وكالطفل الذى ينم بالنوم الهنيء والحية ملتفة حوله ، كذلك يستلقى المتعب مرة أخرى على عتبة الموت ليستريح ، وكأن أمامه طريقاً شاقة سيقطعها — شيء آخر . إنى أعرف فتاة ؛ إنك لن تزدريها لأنها كانت لى . فالآن إذ أوصيك بها أموت مستريحاً . إنك رجل كريم ، والمرأة فى يدك آمنة مصون . أيعيش أدولف الشيخ ؟ أطليق هو ؟

فرديناند : الشيخ الطروب الذى كان دائماً فى ركابك ؟

إجمنت : هو .

فرديناند : إنه يعيش . إنه طليق .

إجمنت : إنه يعرف منزلها ، فدعه يقتادك ، وكافئه حتى تماته أن أراك الطريق إلى هذه الدرة — وداعا !

فرديناند : لست ذاهباً .

إجمنت : (يدفعه نحو الباب) . وداعا !

فرديناند : لو تركتنى قليلا !

إجمنت : صديقى . إذن لا وداع !

(يرافق فرديناند حتى الباب ويتخلص منه هناك . ويبتعد فرديناند مسرعا وقد أصابه ذهول) .

إجمنت : (وحده) . أيها الرجل العدو . ما كنت تظن أنك تولينى هذا الإحسان على يد ابنك . فعلى يده تخلصت من همومى وآلامى ، ومن الخوف وكل شعور به . والآن تطلب الطبيعة حقها الأخير فى رقة وإلحاح . لقد انتهى كل شيء . لقد تقرر . وإن الأمر الذى استبقانى الليلة الفائتة على فراشى ساهراً لا أعلم منه شيئاً علم اليقين يخدر حواسى الآن باليقين القاطع .

(يجلس على سريره . موسيقى)

أيها النوم اللذيذ . إنك تأتى أطوع ما تأتى كالهناء الصافى لم تُرْجَ ولم يتوسل إليك . إنك تحل عقد الأفكار القاسية، وتمزج الصور جميعاً ، صور الفرح والألم ، وتجرى بك حلقة الانسجامات فى أنفسنا على هواها . وفى غلالة من الهذيان الرفيق نهبط وتنقطع علاقتنا بالوجود .

(يغلبه النعاس ، وترافق الموسيقى نعاسه . ويلوح فيما وراء سريره كأن الجدار ينشق فتبدو ظاهرة باهرة : الحرية فى لباس سماوى يفيض من حولها النور ، وتستقر فوق سحابة . وللحرية ملامح كلارا فتميل نحو البطل النائم وتعرب عن إحساس الأسف ، وتلوح كأنها تندبه . ثم سرعان ما تمالك نفسها ، وتريه حزمة الأسهم مشجعة ، ثم العصا والقبعة ، وتطلب إليه أن يروح عن نفسه . وإذ تلمح له أن موته سيجلب للأقاليم الحرية ، ترى فيه الظافر ، وتناوله إكليلا من الغار . وفيما هى تقترب بالإكليل من رأسه إذا بحركة تصدر عن إجنت كمن يتحرك فى نومه ، فيكون فى حركته كمن يرقد ووجهه مرفوع صوب الحرية . فتمسك بالإكليل وتحوم به فوق رأسه . عندئذ تسمع من بعيد موسيقى حربية قوامها الطبول والقرب . فما أن يسمع الطيف أخفت وقع لهذه الموسيقى حتى يختفى . ويزداد صوت الموسيقى قوة ووضوحا فيستيقظ إجنت وينفذ ضوء النهار خفيفاً إلى السجن . وتكون أول حركة لإجنت أن يتحسس رأسه ، ثم ينهض ويلتفت حوله بحيث يبقى يده فوق رأسه) .

لقد اختفى الإكليل . أيتها الصورة الجميلة . لقد أقصاك ضوء النهار . لقد كانتا هما . كانتا متحدتين أحلى مسرتين على قلبى : الحرية السماوية وقد استعارت قامتها من حبيبتى ، والفتاة الفاتنة ترتدى ثوب الصديقة السماوى . ظهرتا متحدتين فى لحظة خطيرة تبدو عليهما سيماء الجد أكثر مما تظهر أمارات العطف . لقد تقدمت منى الحرية بقدمين ملطختين بالدم : كذلك ثوبها كانت ثناياه الهفافة ملطخة بالدم . دمى أنا ودم الكثيرين من النبلاء . كلا . إنه لم يرق هدراً . تقدموا أيها الرجال البواسل . فآلهة النصر تقودكم . وكما يرتد البحر ويتكسر على سدكم ، كذلك فأهدموا جدار الظلم ودكوه دكا ، وردوه مغرقا عن أرضكم التى يستبيح ، رداً .

(يقترب قرع الطبول)

أنصت ! أنصت ! ما أكثر ما نادانى هذا الصوت وما أهاب بى إلى ميدان القتال والنصر . وما أشد ما طربت قلوب الرفاق فى السير فوق هذه الطريق الخطرة المحفوفة بالفخار . كذلك اليوم أخطو إلى موت كريم من هذا السجن . إنى أموت فى سبيل الحرية التى عشت وجاهدت من أجلها ، والتى أضحى بنفسى الآن معانياً فى سبيلها .

(يحتل مؤخرة المسرح شرذمة من جند الأسبان يحملون الحراب) أجل . ضموا حرابكم واحكموا صفوفكم فلن تخيفونى . لقد اعتدت أن أقف أمام الحراب أواجه الحراب ، وأن أحس الحياة الباسلة تجيش مضاعفة فى صدرى بين مخالب الموت الداهم .

(تقرع الطبول)

العدو مطبق عليك من كل صوب ، والسيوف تلتمع ، فاستبسلوا أيها الصحاب ! إن من ورائكم آباء وأمهات ونساء وأطفالا .

(يشير إلى الحراس)

وهولاء تدفعهم كلمة من الحاكم جوفاء ، لا من وحى قلوبهم . فاحموا أموالكم ! ولكى تنقذوا أعز ما لديكم طيبوا بالموت نفساً ، كما به اليوم أطيب .

(تقرع الطبول . وإذ يسرع نحو الحراس صوب الباب الخلفى تنزل الستار ، وتعزف الموسيقى ، وتختم الرواية بسِمْفُونى النصر) .

« انتهت »

3623

VETVS &
NOVVM
TESTA-
MENTVM
DEI·SVB·NVMINE·VIGET
PRINCETON
UNIVERSITY
LIBRARY

WERT
BOOKBINDING
MIDDLETOWN, PA.
MARCH 83
We're Quality Bound

(Arab)
PT2034
.A71412